الدكتور عزت السيد أحمد

الثورة ثورة في كل شيء

قراءة سياسية تاريخية

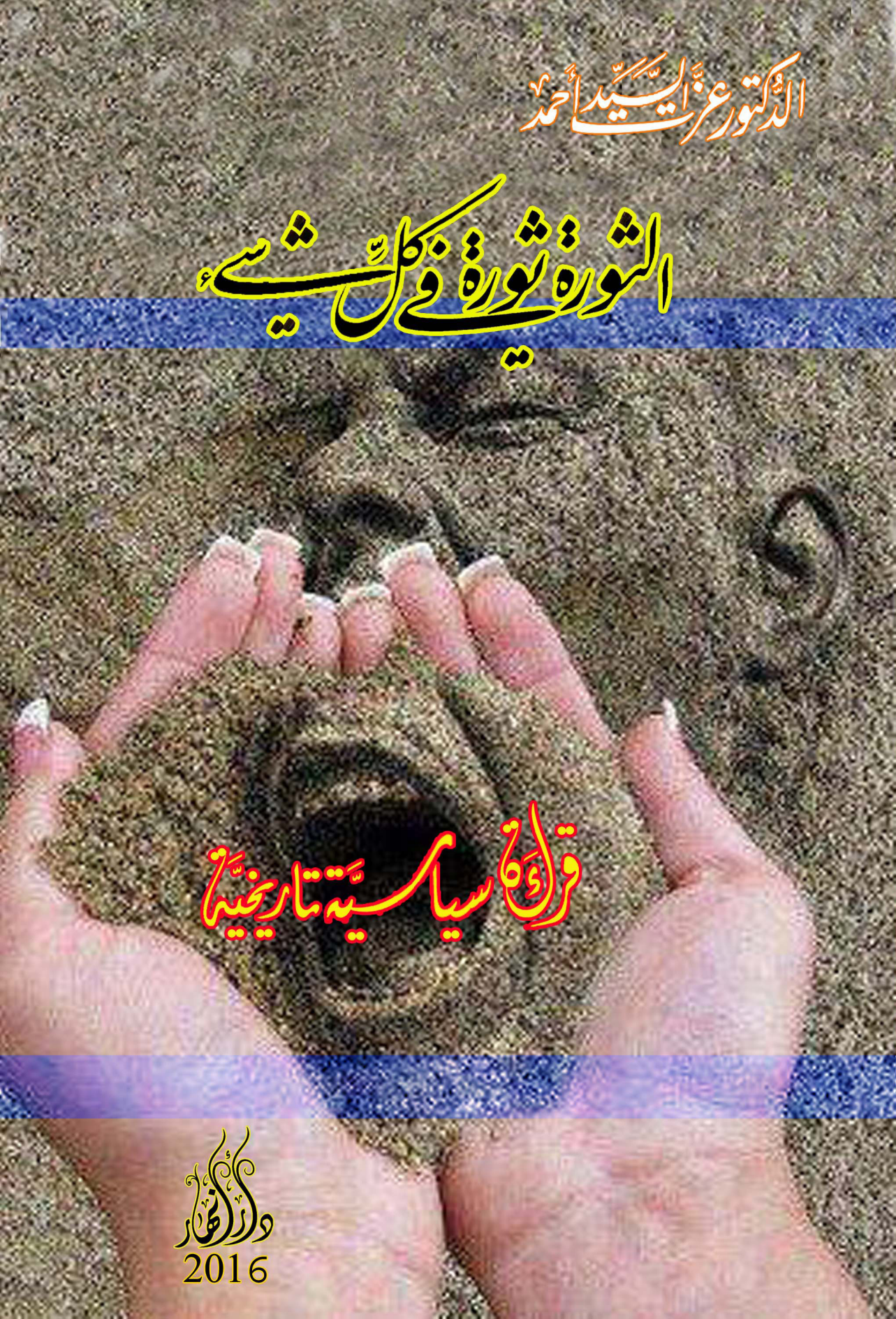

دار الأمير
2016

الدكتور عزت السيد أحمد

الثورة ثورة في كل شيء

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عزت السيد أحمد

الثورة ثورة في كل شيء

دار النهار
2016

دار أنهار للدراسات والترجمة والنشر

كل الحقوق محفوظة

تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضَه بأيِّ وسيلةٍ من وسائل الطِّباعةِ والنَّشر والإعلام من دون موافقةٍ خطيَّة من الناشر أو المؤلِّف

تطلب النسخة الورقية أو الإلكترونية من الناشر على البريد التالي

Sameah3@gmail.com

بيروت

٢٠١٦م

الإهداء

إلى الثورة السورية

التي غيرت المجتمع تماما

مـن يظنُّـون أنَّ الثَّـورات حتميَّـة النَّصـر فهـم واهمـون، ولنـا في تـاريخ الثَّـورات الكثـير مـن النَّمـاذج الـتي يجـب أن تكـون أمـام أعيننـا وعقولنـا، ثَمَّـة ثـورات انتصـرت، وثَمَّـة ثـورات انهزمـت، وثَمَّـة ثـورات اقتربـت مـن النَّصـر إلىٰ أبعـد الحـدود ولٰكنَّهَـا انقلبـت موازينهـا وانهـزت، وثَمَّـة ثـورات أوشـكت علـىٰ الهزيمـة وانتصرت....

من مقدِّمة إحدىٰ مقالات هٰذا الكتاب أبدأ مقدِّمة الكتاب. ضَرْبٌ من الهبل والخبل والغباء في آن معاً الاعتقاد بل محض الظَّن أنَّ الثَّورة أيَّ ثورةٍ يجب أن تنتصر حتماً. الثَّورة في المحصِّلة حرب بَيْنَ طرفين، موازين القوى بَيْنَ الطَّرفين هي الَّتي تحدِّد المستوى الأوَّل للنَّصر، وليست موازين القوىٰ وحدها هي التي تحدِّد ميزان النَّصر بل إنَّ إدارة موازين القوىٰ هي الَّتي تمسك ببيضة ميزان النَّصر. وهٰذا موضوع أفضنا فيه في كثيرٍ من المواضع منها موضعٌ في هٰذا الكتاب. وهو ليس همَّنا هنا علىٰ أيِّ حالٍّ.

الثَّورة ليست اعتراضاً، الثَّورة ليست احتجاجاً، الثَّورة ليست تذمُّراً. الثَّورة كلُّ ذٰلكَ معاً وأكثر. الثَّورة حربٌ علىٰ كلِّ شيءٍ في البنية التي تمَّت الثَّورة عليها وليست علىٰ جزءٍ منها وإلا كانت احتجاجاً أو اعتراضاً أو عصياناً أو تمرُّداً... كلُّ هٰذه المفردات تستخدم للحرب علىٰ جزءٍ أو مشكلةٍ أو جانبٍ من جوانب

البنية السِّياسيَّة أو الاجتماعيَّة أو الاقتصاديَّة... أمَّا الثَّورة فهي مجموع ذٰلكَ كلِّه وإعلان حربٍ عليه لاستبداله بالمطلق ببنيةٍ جديدةٍ.

إعلان الحرب لهٰذا لا شكل واحد له مطلقاً، كلُّ الأشكال ممكنةٌ فيه وجائزةٌ. كلُّ الأشكال والأنماط ممكنةٌ بمعنى أنَّ الخيارات مفتوحةٌ أمام الثَّورة لتتَّخذ السَّبيل الذي تراه مناسباً لتحقيق أهدافها. الثَّورة لا تختار في حقيقة الأمر السَّبيل الذي تسيرُ فيه بقرارٍ مسبَّقٍ وإنَّمَا الواقع وطبيعة السُّلطة التي تتمُّ الثَّورة عليها هي الَّتي تفرض علىٰ الثَّورة خياراتها التي غالباً ما تتغيَّر بالتَّدريج بتغيُّر طبيعة سلوك السُّلطة تجاهَ الثَّورة.

الثَّورات كلُّها تنطلقُ سلميَّةً ولا تريد أن تكون غير سلميَّةٍ، وأغلب الثَّورات تنتقل إلىٰ العنف رويداً ورُبَّما سريعاً في خطوةٍ متقدِّمةٍ. وإذا تحوَّلت الثَّورة إلىٰ العنف ولم تستطع الانتصار فإنَّهَا لا تجد بديلاً عن التَّسلُّح، ولا يكون ذٰلكَ خياراً مدروساً بقدر ما يكون ردَّ فعل علىٰ تصلُّب السُّلطة ومنهجها العنفيِّ في مواجهة الثَّورة. وعلىٰ أيِّ حالٍ لا يمكن لثورةٍ إلا أن تمرَّ بالعنف بدرجةٍ من الدَّرجات وغالباً ما يكون العنف عالياً لأنَّ الثَّورة أصلاً وأساساً انفجارٌ انفعاليٌّ وليست مشوار نزهة علىٰ شاطئ نهرٍ أو بحرٍ. ومع ذٰلكَ فإنَّ العنف الذي تمارسه الثَّورة ضرورةٌ نفسيَّةٌ لا بُدَّ منها لتفريغ الضَّغط حَتَّىٰ لا ينفجر الضَّغط في مرحلةٍ لاحقةٍ علىٰ الثَّورة بما ينعكس علىٰ الأمن الاجتماعيِّ والاستقرار الاجتماعيِّ.

أمَّا عندما تنتقل الثَّورة إلىٰ التَّسلُّح فإنَّهَا تكون قد شرعنت العنف. وبالكاد توجد ثورةٌ تنتقل إلىٰ حمل السِّلاح بإرادتها وقرارها من دون حاجةٍ إلىٰ ذٰلكَ. ولا يجوز الخلط بَيْنَ العنف والتَّسلُّح. التَّسلُّح طبيعةٌ من طبائع الثَّورة وعلىٰ ما يبدو عليه من أذى فإنَّهُ في أغلبه أخلاقي بمعنى من المعاني. تتفرَّغ الطاقات

المكبوتة بالعنف الذي ينصبُّ علىٰ ماديَّاتٍ، وسرعان ما يقوم الشَّعب ذاته الذي مارس العنف بالتَّنظيف والتَّرتيب وإعادة الأمور إلىٰ نصابها عندما تهدأ الأمور في اليوم ذاته؛ في كلِّ يوم.

أمَّا التَّسلُّح والانتقال إلىٰ الحرب الرسميَّة فهو خيارٌ تفرضه السُّلطة ليس بعدم استجابتها لمطالب الثَّورة بل بما تمارسه من عنفٍ ضدَّ الثَّورة. وغالباً أيضاً ما ترفض الثَّورة حمل السِّلاح إلا بعد اليأس التَّامِّ من انكفاء السُّلطة عن ممارسة العنف ضدَّها.

علىٰ أيِّ حالٍ، سواء أكانت الثَّورة انتصرت بالسِّلميَّة وهٰذا أمرٌ صعبٌ غالباً، أم انتصرت بالحرب، فهي مطالبة بإعادة البناء الشَّامل، يجب أن تكون الثَّورة ثورةً في كلِّ شيء؛ في الأخلاق، في التَّربية، في التَّعليم، في الإعلام، في السِّياسة، في الاقتصاد، في الفكر، في المؤسَّسات، في التَّنظيم، في القوانين...

ثورةٌ في كلِّ شيءٍ لا يعني هدم كلِّ شيءٍ. بعض أشباه الفلاسفة أو أشباه المفكِّرين يرون في الثَّورة هدماً للماضي، وهٰذا وهمٌ وخللٌ. الثَّورة للبناء لا للهدم... للبناء يعني المشكلة ليست في الماضي بما هو ماضي، وإنَّمَا في الحاضر والمستقبل وكيف يجب أن يكون. يعني ذٰلكَ أنَّ المشكلة في الخلل في أيِّ بنيةٍ من البنى العامَّة للمجتمع والدَّولة والأمَّة، الثَّورة ثورةٌ علىٰ الخلل وليست ثورةً علىٰ الصَّالح والجيِّد.

لو كانت الثَّورة ثورةً علىٰ الصَّالح والجيِّد فمن العار منطقيًّا وأخلاقيًّا تسميتها بالثَّورة. كما حدث في مصر علىٰ سبيل المثال؛ ثار الشَّعب علىٰ الحكومة التي أنجبتها ثورته فجاء بانقلابٍ عسكريٍّ لم يترك مفسدةً إلا وكرَّسها وفعلها خلاف السُّلطة التي انقلب عليها الشَّعب باسم ثورةٍ ثانيةٍ.

هٰذا يعني منطقيًّا ومنهجيًّا وأخلاقيًّا أن الثَّورة لا يجوز أن تصنع ما هو سيء، لا يجوز أن تصير أسوأ مما ثارت عليه. والثَّورة أصلاً لا يمكن أن تكون ثورةً إلا علىٰ خللٍ وفسادٍ وأخطاءٍ وإلاَّ كيف يجوز أن تثور النَّاس علىٰ صوابٍ ونجاحٍ؟

وبذلك ينتفي منطقيًّا السُّؤال: هل هناك ثورةٌ علىٰ حكم صالح؟

لا يمكن أن تسمَّى الحركات الرَّافضة علىٰ الحكم الصَّالح ثورةً بحالٍ من الأحوال، والثَّورة التي تقوم من أجل المجيء بسلطةٍ سيئةٍ ليست ثورَة. لا ثورة تقوم لتجيء بسلطةٍ سيِّئةٍ مطلقاً. ومن يجيز ذٰلكَ فهو كمن يساوي اللصَّ بالأمين، كمن يساوي بَيْنَ الفاسق الفاجر والصَّادق الطَّاهر.

لا أطيل، فصول هٰذا الكتاب مقالات كتبت كلها في عام ٢٠١٥م ونشرت في تواريخها المرقومة في حواشيها في العام ذاته في مواقع الإنترنت والتَّواصل الاجتماعي، باستثناء مقال: هل انتصار الثَّورة حتميٌّ الذي كتب ونشر في أواخر عام ٢٠١٣م. وثورة علىٰ أدعياء الفكر الذي كتب في أواخر عام ٢٠١٤م.

وعلىٰ الرَّغْمِ من أنَّها من وحي الثَّورة السُّوريَّة وألمها إلا أنَّها قراءةٌ فوق الثَّورة السُّوريَّة، أو فوق ثورةٍ بعينها، إنَّهَا قراءةٌ في فلسفة الثَّورة، ولذٰلك لم أدرجها في كتبي عن الثَّورة السُّوريَّة وإنما أفرد لها هٰذا الكتاب المستقل.

عزت السيد أحمد

شباط ٢٠١٦م

الفَصْل الأوَّل

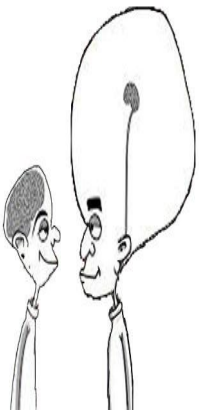

ثورة في الثورة

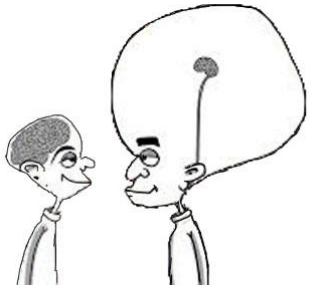

كثيرون ينظرون إلىٰ الأمور بخواتيمها، إلىٰ ما انتهت إليه الأمور، إلىٰ النَّتائج كيف بدت وتجلَّت وكيف تفعل فعلها... ولا ينظرون إلىٰ الأسباب التي أدَّت إليها. ومنها الثَّورَة[1]...

ينظرون إلىٰ أن ثورة وقعت، انتفاضة علىٰ الظُّلم أو الاستبداد أو الفساد أو الجوع قد وقعت ولا ينظرون إلىٰ الأسباب أو المقدِّمات التي أدَّت بالشَّعب إلىٰ الانتفاض والثَّورَة. وهٰذه الرُّؤية مبتورةٌ قاصرةٌ عن إدراك الواقع، الثَّورَة، وقاصرةٌ من ثَمَّ عن وضع التَّصورات اللازمة والمناسبة لقيادة الثَّورَة وانتصار الثَّورَة وبناء ما بعد الثَّورَة.

وبمثل عدم النَّظر إلىٰ الأسباب أو المقدِّمات يكون أمر عدم النَّظر المنهجيِّ للآفاق والمستقبل. المسألة ليست مسألة أحلامٍ وتخيلاتٍ وأمنياتٍ نرسمها ونفرح بها ونتوقَّع حدوثها بمحض توهمها أو تمنِّيها، كما حدث مع شعوب الرَّبيع العربيِّ قاطبةً. ولأنَّ ما حدث هو من قبيل هٰذه

(١) .كتب هٰذا الفصل في ٢٢/ ١/ ٢٠١٥م، ونشر في الهيئة السورية للإعلام في ٢٩/ ١/ ٢٠١٥م.

الهرطقات انتكس الربيع العربي في البلدان التي انتصرت فيها الثَّورات، انتكس فوراً وبأسرع مما يمكن أن يتوقَّعه أحدٌ... لم ينتكس وحسب بل انهزمت الثَّورات بانقلاب الأنظمة التي أسقطتها الثَّورات على الثَّورات وعودتها إلىٰ الحكم بطريقةٍ أشد ورُبَّما أشنع.

ما بَيْنَ النظر إلىٰ الماضي والنَّظر إلىٰ المستقبل تقع الثَّورَة التي إن لم تحط بهاتين الرؤيتين فإنها ستدخل في فوضىٰ وعبثية وتشتت يؤدي إلىٰ أحد أمرين إما استمرار الصراع الثوري أمداً طويلاً أكثر مما يمكن أن يحتمل تتحول فيه الثَّورَة إلىٰ صراع ورُبَّما حرب أهلية، أو أن تنهزم الثَّورَة وتسقط.

إنَّ سقوط النِّظام الذي ثار عليه الشعب في مثل هٰذه الفوضىٰ والعبثية والتشتت شرٌّ من بقائه.

كثيرون يكررون من شدة الألم والفوضىٰ والعبثية التي وصلت إليها حال الثَّورَة السورية علىٰ سبيل المثال بأنهم يريدون أن يسقط النظام مهما كلف الثمن، بأي طريقة، المهم أن يسقط النظام، غير مدركين أن هٰذه الفوضىٰ والعبثية التي تعيشها الثَّورَة أو وصلت إليها الثَّورَة ستجعل الثمن الذي ستدفعه سوريا شعباً وبلداً أكبر بكثير من بقاء النظام. هٰذا ليس دفاعاً عن النظام، ولا رغبة في بقائه، ولا قبولاً ببقائه... النِّظام لم يعد من الممكن أن يبقىٰ أبداً، وأي بقاء له ظرفي، راهن.

استحالة بقاء النِّظام السورية استحالة منطقية علىٰ ضوء المعطيات الراهنة وآفاقها المحتملة، ولٰكنَّ هٰذا لا يعني أن النظام لا يمكن أن ينتصر علىٰ الثَّورَة، وأنه لا يمكن أن يبقىٰ ويعود أقوىٰ أقوىٰ مما كان. هٰذا وهم يصطنعه أمثال أولئك الذين يحاكمون النتيجة ولا يعرفون السَّبب. إنهم

يثبون فوق جدران المنطق مثلما كان يفعل النِّظام السُّوري والإعلام السُّوري في التَّعامل مع المتظاهرين، في التَّعامل مع شعارات الثَّورَة... في تهميش الحقيقة وجوهر المشكلة وتجاهل سلوكات النظام الوحشية والتركيز علىٰ حجر رفعه مواطن مكلوم.

حسناً، إذن لا حتمية لانتصار الثَّورَة، وانتصارها في ظلِّ وضعها الراهن من فوضىٰ وتشتت وعبثية أمرٌ لا يقلُّ خطورة عن عدم انتصارها. وقد كتبت عن هٰذه الحقيقة منذ أكثر من سنة، كتبت: «لا أخشىٰ أن لا تنتصر الثَّورَة، أخشىٰ أن تنتصر بهٰذه القيادات».

وفي الوقت ذاته إنَّ استحالة بقاء النظام علىٰ ضوء معطيات الواقع لا يعني أبداً استحالة أن يهزم الثَّورَة ويعيد بناء ذاته من جديد بطريقة أو بأخرىٰ تكون أحسن أو أسوأ مما سبق.

هٰذا يعني أننا بحاجة إلىٰ ثورة في الثَّورَة. منذ خمسين سنة أطلق غسان كنفاني قوله بل حكمته الشهيرة الرائعة: «إذا كنا مدافعين فاشلين عن قضية عادلة فالأُحْرَىٰ أن نغير المدافعين لا أن نغير القضيَّة».

هٰذه قضية الثَّورَة الأساسية اليوم. أربع سنوات كاملة تقريباً هي عمر الثَّورَة لم تفلح قياداتها المختلفة علىٰ مختلف المستويات والأصعدة أن تقدم شيئاً، بل لم تسهم إلا في زيادة الفوضىٰ والضبابية والعبثية. وكل من يتحدث عن إنجازات فهو واهم ولا يدي من الحقيقة شيئاً. لا يوجد أي إنجاز للثورة. الذي يحدث أن النظام متآكل وهو الذي يتراجع ويتقهقر وليست الثَّورَة هي التي تتقدم.

كيف يمكن الاقتناع بأن الثَّورَة تتقدم أو تحقق انتصارات ولا يوجد قيادة للثورة؟!

كيف يمكن الاقتناع بأن الثَّورَة تتقدم أو تحقق انتصارات وكلٌّ يغني علىٰ ليلاه، لا أحد له سلطة علىٰ أحد، كل منطقة منعزلة ومستقلة عن غيرها من المناطق؟

كيف يمكن الاقتناع بأنَّ الثَّورَة تتقدَّم أو تحقِّق انتصاراتٍ ولا توجد مرجعيَّةٌ واحدةٌ للثَّورة، نحن أمام مرجعيَّات بعدد المناطق بل بعدد القرىٰ والمدن السُّوريَّة؟!

إن عدم الاقتناع بهٰذه الحقيقة، واستمرار الاقتناع بأنَّ انهيارات النظام بسبب تقدَّم الثَّورَة وليس بسبب تآكل النظام وانهياره الهيكلي الداخلي والخارجي، لن يؤدي إلا إلىٰ استمرار تقدم الفوضى والعبثية والتشتت، ومن ثَمَّ تقدم الثَّورَة إلىٰ الهاوية تقدم النظام إلىٰ التقاط النفس وإعادة هيكليتيه إلىٰ التوازن وسحق الثَّورَة.

في ظلِّ هٰذه المعطيات النِّظام هو المؤهَّل للنَّجاح وليس الثَّورَة، النِّظام علىٰ الرَّغْمِ من تآكله وانهياره إلىٰ أنَّهُ يحقِّق عنصر الانسجام والمرجعيَّة الواحدة، بما يتيح له سهولة استجماع ذاته أكثر من الثَّورَة المشتتة التي تنخر فيها الفوضى والعبثيَّة، ناهيكم عن حالات الفساد الكبيرة التي تجتاح قيادات الثَّورَة علىٰ نحوٍ خاصٍّ، ومن ثَمَّ تجتاح الثَّورَة.

الأمر يحتاج إلىٰ اعترافٍ بالدَّرجة الأولىٰ، والاعتراف وحده لا يكفي، يجب في الحدود الدُّنيا إعادة إنتاج الثَّورَة، ثورة علىٰ كلِّ الهياكل الفاسدة والغبية المستحكمة في الثَّورَة. وكلُّ من يظنُّ أنَّ من قادوا الثَّورَة علىٰ مدار السَّنوات

السَّابقة قادرين علىٰ الانتقال بها إلىٰ الأمام، أو يمكن الوثوق فيهم لقيادة مرحلة ما بعد انتصار الثَّورَة فهو واهم.

إنَّ الحاجة إلىٰ الثَّورَة في الثَّورَة ليست مسألةً لا يمكن التَّساهل فيها أبداً، إنَّهَا ضرورةٌ أكثر من أيِّ ضرورةٍ في الوقت الرَّاهن نظراً لما وصلت إلىٰ الأمور من تردٍّ وفوضىٰ وتشتُّتٍ وعبثيَّةٍ، ونظراً إلىٰ أنَّ أيَّ خطوةٍ من أيِّ نوعٍ تُقدِم عليها الثَّورَة أو تريد أن تقدم عليها لا يمكن أن تكون إلاَّ من خلال قيادةٍ واحدةٍ ومرجعيَّةٍ واحدةٍ؛ ولا يمكن أبداً أن تستطيع الثَّورَة فعل شيءٍ ما لم يتحقَّق هٰذا الشَّرط.

إذن نقطة انطلاق الثَّورَة في الثَّورَة يجب أن تكون التَّركيز علىٰ قيادة واحدة جديدة وجديَّة، وعلىٰ كل القيادات القديمة التي أخفقت كل الإخفاق، وبعضها ساهم في تدمير الثَّورَة، أن تعي حقيقة الموقف وتقدر الموقف تقديراً يجعلها تقف أمام مسؤولياتها في التخلي عن عقدة الزعامة والإفساح في المجال لقيادات قادرة علىٰ قيادة الثَّورَة نحو المسار الصَّحيح الذي يضعها علىٰ السكة الحقيقية لها، ويفتح المجال أمامها للتَّقدُّم وتحقيق الإنجاز الذي قامت الثَّورَة من أجله.

إنَّ القيادات الحاليَّة للثَّورَة من مختلف المستويات والميادين السِّياسيَّة والعسكريَّة وغيرها أمام أكبر وأخطر مسؤوليَّة تاريخيَّة وأخلاقيَّة في تقدير الموقف واتخاذ القرار اللازم الجريء. وهي إذا لم تقدِّر ذٰلكَ فهي غير جديرةٍ بالقيادة وهي المسؤولة عن دمار الثَّورَة وسوريا، وإذا قدَّرت ولم تتخذ الإجراء اللازم فهي أيضاً غير جديرة بالقيادة ومسؤولةٌ عن دمار الثَّورَة وسوريا. في الحالين كليهما ولا ثالث لهما كلُّ القيادات

الرَّابضة علىٰ صدر الثَّورَة منذ ثلاث سنوات[٢] أمام مسؤوليَّة القرار الجريء المسؤول في هٰذا الوقت تحديداً وإلاَّ فإنَّ الثَّورَة وسوريا سائران إلىٰ طريق الفوضى وإلىٰ مزيدٍ من المجهول والتِّيه والغموض والعبثيَّة.

.

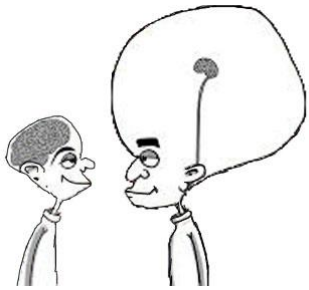

(٢) . مع صدور هٰذا الكتاب نقترب من انتهاء العام السادس من دون أي تغير أو تغيير في العقليات الغبية والتافهة والقاصرة والعاجزة التي تربض علىٰ صدر الثورة وصدور السوريين وتسهم في مزيد من الخراب والدمار والتشريد.

الفصل الثاني

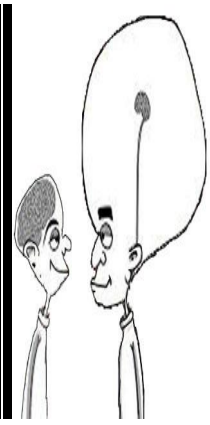

ثورة على أدعياء الفكر

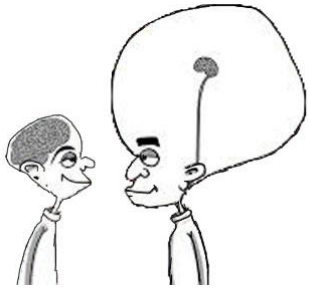

الفيس بوك يعيد إنتاج ظاهرة: أشهد أنَّني مفكرٌ عظيم، ويجب أن يعترف الجميع بأنَّ صديقي فيلسوفٌ كبيرٌ، وعلىٰ الإعلام أن ينصف صديقتي الشَّاعرة العظيمة، والنَّاس لا تعرف القيمة العظيمة للفنان الفلتان فلان، وندوة حول الشَّاعر الفظيع الرهيب الشنيع الرائع المريع(٣)...

ظاهرة تصنيع وتصويج وجلخ الأعلام والنجوم. هٰذه الظَّاهرة ليست محدثةً في عالمنا العربيِّ، وليس الفيسبوك سببها علىٰ الإطلاق. الذين يمارسون هٰذه العادة السِّريَّة هم أبناء وأحفاد الذين بدؤوها في عالمنا العربيِّ. عندما أقول أبناءهم وأحفادهم فأنا أعني أنَّهُم ورثتهم وامتدادهم الأيديولوجيين والنَّفسين لا البنوة البيولوجيَّة(٤).

منذ عصر الاستقلال ووصول الحكم إلىٰ الأنظمة الوطنيَّة بدأت بوضوح ظاهرةُ التَّظهير في عالم الفكر والإبداع علىٰ نحوٍ خاصٍّ، أو ما يسمَّى ظاهرة الشللية.

---

(٣) .كتب هٰذا الفصل في ١٢/ ١٢/ ٢٠١٤م، ونشر في سراج برس في ٢٧/ ١/ ٢٠١٥م.

(٤) . من الطرافة بمكان أني عندما نشرت هٰذه الفكرة في منشورات قصيرة ثار وهاج واهتاج بعض من أعلام الفكر العربي ظنًّا منه أني أتكلم عليه وأقصده بصناعة التصنيع والتصويج والتجليخ التي لا يجهلها أبناؤها وضحاياها في العالمنا العربي طيلة عشرات السنين السابقة منذ أواخر الستينيات إلىٰ يومنا هذا.

كلهم يفخِّمون بعضهم بعضاً، ويعظِّمون بعضهم بعضاً، وينقدون بعضهم بعضاً، ويقيمون النَّدوات لبعضهم بعضاً... ويصيرون عظماء بَيْنَ بعضهم بعضاً... وسيطروا علىٰ وسائل الإعلام وصاروا هم وجوه الإعلام، وهم عظماء الأمَّة ومثقفوها ومبدعوها...

وعندما جاء الدَّور الحقيقي للمثَّقف والمبدع لم نجد أحداً منهم، لم يختفوا كالجرذان وحسب بل وقفوا ضدَّ قناعاتهم التي كانوا يجاهرون بها. فكانوا أحقر من الحقارة، وأخسَّ من الخِسَّة...

عشرات السِّنين الماضية والإنسان العربيُّ نفسه أمام قامات من العظماء التي يروِّج لها الإعلام كلَّ يوم: الشَّاعر العظيم، المفكِّر الكبير، القاص الرهيب، المعارض الشُّجاع... فتغلغل في وجدانهم أنَّ هٰؤلاء هم رموز الأمَّة وقادة وعيها ونبراسها المنير. لم يدركوا حقيقة أنَّهُم تفاهات روجت لبعضها بعضاً بعد سيطرتها علىٰ وسائل الإعلام بدعم مباشر من قبل أنظمة الحكم الوطنيَّة العربيَّة.

أنظمة الحكم الوطنيَّة التي أدركت تمام الإدراك عدم شرعيتها الحاليَّة ولا المستقبليَّة أرادت أن تفرض شرعيتها بالتَّزوير والتَّضليل. طبيعي، لا يمكن البرهان علىٰ الباطل إلا بالباطل. ولذلك صنعت مثقَّفيها ومبدعيها صنعاً. طبيعيٌّ أيضاً أن يكون هٰؤلاء من الأدعياء وليسوا من المبدعيين الأصلاء. وطبيعي أيضاً أن يتم تهميش وترحيل وتهجير ومحاربة واعتقال المبدعيين الحقيقيين. وعلىٰ مدار ما مضى من أكثر من نصف القرن المنصرم أن تكون السَّاحة مشغولةً بهٰؤلاء الأدعياء الذي لا علاقة لهم بالثَّقافة ولا بالإبداع. هٰؤلاء الأدعياء هم النُّجوم والأعلام واللجان والحكام والمحكمين في مختلف ميادين الإبداع.

الإبداع ليس قراراً سلطانيًّا أبداً، الإبداع موهبة إلهية خالصة. فمن لم يؤت هٰذه الموهبة لا يمكن أن يحمل صفات المبدع ولو صدرت عشرات بل مئات بل ملايين القرارات السُّلطانيَّة بوصفه مبدعاً. عندما اعترض مجلس الأباطرة علىٰ الإسكندر بأنَّهُ يجلس أرسطو علىٰ يمينه وكبير وزرائه علىٰ يساره قال:

«الوزير أصنعه بجرة قلم، ولٰكنَّ أرسطو من صنع الله لا يمكن لأي أحد أن يصنع مثله».

هٰذه هي الحقيقة التي لا يريد هٰؤلاء الحثالات إدراكها، بل يدركونها ويعملون بعكسها. ما عدا ضعاف النُّفوس والسُّفهاء الذين يكذبون ويصدقون كبتهم.

ولأنَّ هٰؤلاء أدعياء صنعوا أنفسهم بالتَّطبيل والتَّهليل والتَّزمير والهيلمة والسَّيطرة علىٰ وسائل الإعلام، وأقرَّتهم الأنظمة السِّياسيَّة علىٰ ذٰلكَ، فإنَّهُم مرهونون لمن صنعهم ولما صُنِعُوا له، ولذٰلك عندما احتاجهم الشَّعب الذي فرضوا أنفسهم عليه رموزاً له هربوا، وانقلبوا، وظلَّوا في أحضان السَّلاطين التي صنعتهم. هم بذٰلكَ ليسوا متناقضين مع أنفسهم كما يتوهم بعض النَّاس. هم منسجمون مع أنفسهم أتمَّ الانسجام. هم أصلاً ليسوا مبدعين، هم مخابرات الأنظمة السياسيَّة وجواسيسها المكلفين بتمثيل شخصيَّة الشَّاعر أو الممثل أو الفيلسوف أو المخرج أو القصصي... وعندما تغير الظَّرف تغيرت المهمَّة التي كانوا مكلفين بأدائها، تحولوا إلىٰ أبواق إعلامية صريحة ومباشرة... كم من معارض خلخل وزلزل وقرقع وأرغد وأزبد قبل الربيع العربي وبعد الربيع صار من أبرز المدافعين عن الأنظمة التي كانوا هم أنفسهم يحاربونها هي نفسها بشراسةٍ منقطعة النَّظير؟!!

لذلك وقف من يُسَمُّون المثقَّفين العرب ضدَّ الرَّبيع العربيِّ تحت ذرائع متعددة الأشكال والألوان. بعضهم وقف هٰذه الوقفة فور انطلاق الرَّبيع العربيِّ، وبعضهم عمد إلىٰ الصَّمت الذي يحاول أن يكون ذكيًّا ولٰكنَّهُ لم يكن أبداً مع الربيع العربي. بعضهم وضع رِجلاً هنا ورجلاً هناك ويلعب إلىٰ اليوم علىٰ الحبلين.

الغريب العجيب أن تجد النِّسبة الكبرى من النَّاس تأبى إلا أن تعيش مخدوعةً علىٰ رغم وضوح الحقائق. فتراهم ينافقون لهٰؤلاء المنافقين ويكيلون لهم المدائح النَّبويَّة والتَّقديسيَّة. صحيحٌ أنَّ الشللية ذاتها تجعلهم يصنعون هالاتٍ حول أنفسهم تجعلهم يبدون علىٰ أنَّهُم نجوم وعظماء بسبب كثرة الضَّخِّ الإعلاميِّ إلا أنَّكَ تجد معهم أعداداً كبيرةً من المنافقين أو السُّذج أو لا أعرف حقيقةً ماذا أسمِّيهم يساهمون في تقديس هٰؤلاء الأدعياء والمنافقين وتكريس نجوميتهم. والمصيبة العظمى أنهم يصدقون أنفسهم وأحياناً يبكون وجداً وتأثراً بمدائح النَّاس أو وسائل الإعلام لهم.

يسرق أحدهم نصًّا أو يضع نصًّا تافهاً فيتهافت عليه النُّقاد من كلِّ حدبٍ وصوبٍ بالمدائح والنَّدوات المسرحيَّة والتلفزيونية، وعندما تكشف السَّرقة فلا أحد يأتي علىٰ ذكرها، وإذا تمَّ الكشف عن تفاهة النَّص لا أحد يناقش أو يرد... بل غالباً ما تسير قافلة المدائح كما لو أنَّ شيئاً لم يكن.

عندما لم يكن أمام المواطن إلا وسائل إعلام الأنظمة الواحدة الوحيدة كانت الشُّعوب تصدق التضليل الإعلامي لأنه لم يكن هناك مصادر للمعلومة والمعرفة إلا هٰذا المصدر الوحيد. رُبَّما لذلك يمكن تفهم أو حَتَّىٰ قبول خضوع النَّاس للتَّضليل الإعلاميِّ. ولٰكنَّ منذ عشرين سنة تقريباً تفجَّرت ينابيع المعرفة وانكسر احتكار الإعلام والمعلومة وصار كلُّ شيءٍ متاحاً للجميع ورُبَّما للجميع

من دون استثناء، ولٰكنَّ النُّفوس لم تتغيَّر أبداً، ظلَّت النَّاس لا تصدِّق إلا التَّضليل الإعلامي. ظلَّت النَّاس تحبُّ من يخدعها، وتصدق من يكذب عليها، وتحارب ومن يقول لها الحقيقة. المشكلة هنا في الإنسان ذاته لا في المثقف الخادع ولا في المثقَّف الصَّادق.

إذن، المثقَّفون الحقيقيُّون وقفوا مع الثَّورة لأنَّهَم لا يمكن إلا أن يقفوا مع الثَّوارت. أدعياء الإبداع الذين صنتعهم الأنظمة والأحزاب من دون أن يكونوا أصلاً مبدعين وقفوا مع من صنعهم وجلخهم وجعل منهم نجوماً وأعلاماً في حين أنَّهُم أقل وأرخص من أن ينتسبوا إلىٰ دوحة الإبداع والثقافة.

في هٰذا السِّياق، سيطرة هٰذه الشلل علىٰ وسائل الإعلام أذكر قصة وقعت في أواسط التِّسعينيات. حينها فضحت الصحافة أحد الكتاب المشهورين بسرقاتٍ صريحةٍ موصوفةٍ. توقَّعتُ حينها أن لا يعلو منبراً بعدها خجلاً منه علىٰ الأقل ومقاطعة له علىٰ الأقل أيضاً. توقَّعتُ أن لا تسمح له وسيلة إعلاميَّة بالنَّشر فيها. لقد كانت فضيحةً مجلجلة.

فوجئت بأنَّ الإقبال عليه تكاثر تكاثراً انشطاريًّا. كان يكتب في جريدة وبضع مجلات لماماً وكل بضعة أشهر يظهر علىٰ منبر، فصار يكتب في عشرات المجلات والصحف وكلَّ أسبوعٍ علىٰ الأقل علىٰ منبرٍ إعلاميٍّ.

الحادثة كما هي تكررت مع ثلاثة أعلام في فترةٍ واحدةٍ تقريباً.

حينها فقدت الأمل وما زال الأمل مفقوداً

المثقفون الذين كانوا يبيضون المعارضة مثل المطر

وكل بيضة من سابقتها أكبر

وكل بيضة بصفارين أو أكثر

وعندما هبت الثَّورات اختفوا مثل الجرذان

وتذرعوا بالتهاب المبايض.. علىٰ اعتبار ما عاد بإمكانهم أن بيضوا

غداً ستجدونهم يقدِّمون كشوفات بأنَّهُم كانوا ثوريين أكثر من الثُّوَّار

وكل واحدٍ منهم يقول بأنَّهُ لولاه لما كان الانتصار

ولٰكنَّهُ لم يكن يكتب بالاسم الحقيقي

لأنَّهُ كان يكتب بالاسم المستعار

وعندما يسأله الثُّوار

وما الاسم المستعار؟

سيقول: مارك كان عدو الثَّورة

والحساب طار

نحن إذن بحاجة ماسَّةٍ لثورة علىٰ أدعياء الفكر لا قبل ولا بعد الثَّورة الفكريَّة. الثَّورة الفكريَّة التي يجب أن تكون يجب أن تكون شاملةً، ثورة في الفكر وثورة علىٰ أدعياء الفكر. الثَّورة الفكريَّة جزء من الثورة. أيُّ ثورة تقوم يجب أن تكون شاملة، وإذا لم تكن شاملةً فلن تكون ثورةً مكتملةً. بل إنَّ الثَّورة الفكريَّة في الافتراض المنطقيِّ سابقةٌ ومتزامنةٌ ولاحقةٌ علىٰ الثَّورة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة. وللحديث في ذٰلكَ صلة.

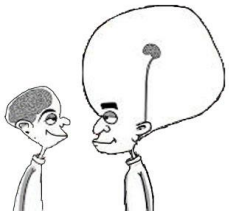

الفصل الثالث

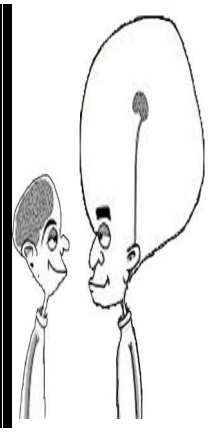

ثورة في الفكر

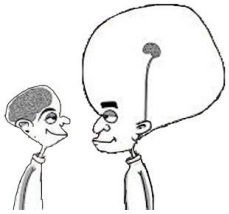

إذا كانت الثَّورة علىٰ أدعياء الفكر ضرورةً فإنَّهَا ضرورةٌ اجتماعيَّةٌ قبل أن تكون ضرورةً فكريَّةً، ومن يجب أن يقوم بهٰذه الثَّورة علىٰ أدعياء الفكر هم أبناء المجتمع بالمطلق وليس المفكِّرين الذين لا يجوز إعفاءهم من هٰذه المهمَّة. المفكِّرون مهمتهم الثَّورة الفكرية(٥).

الثَّورة الفكريَّة جزءٌ من الثَّورة. أيُّ ثورةٍ تقوم يجب أن تكون شاملةً، وإذا لم تكن شاملةً فلن تكون ثورةً مكتملةً. بل إنَّ الثَّورة الفكريَّة في الافتراض المنطقيِّ سابقةٌ ومتزامنةٌ ولاحقةٌ علىٰ الثَّورة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة.

ومثلما الثَّورة بالمطلق لا تكون ثورةً إلا إذا كانت شاملةً، كذٰلكَ فإنَّ الثَّورة الفكريَّة يجب أن تكون يجب أن تكون شاملةً.

الحقيقة الأولى التي يجب أن تكون واضحةً هي أنَّ الفكر في ثورةٍ دائمةٍ بطبيعة الحال. المفكِّر لا يكون مفكراً إلا إذا كان نشاطه ثورةً متواصلةً دائمةً علىٰ الفكر السَّابق، ثورةً مستمرَّةً دائمةً في كلِّ ما يبدعه، لا يمكن أن يكون ما يقدِّمه المفكِّر فكراً جديداً ما لم يكن متجاوزاً ما سبقه من فكر، وإلا فإنَّهُ سيكون اجتراراً لما سبقه به الآخرون. إعادة إنتاج وتدوير الفكر السَّابق ليست

(٥) .كتب هٰذا الفصل في ٢٢/ ١/ ٢٠١٥م، ونشر في سراج برس بتاريخ ٧/ ٢/ ٢٠١٥م.

فكراً، إنَّهَا اجترارٌ بمعنى من المعاني. بل أشنع من الاجترار، فالاجترار مقبول من غير المفكر لأنَّهُ بطبيعة الحال غيرُ قادرٍ علىٰ الإبداع والابتكار، أمَّا المفكِّر الذي يعيد إنتاج وتدوير ما قدَّمه السَّابقون فهو يدخله في باب اللصوصيَّة أو العجز والضَّحالة، ويصادر ادعاءه أنَّهُ مفكر.

علىٰ هٰذا الأساس فإنَّ السُّؤال الذي يفرض ذاته هنا: إذا الأمر كذٰلكَ فكيف تصحُّ إذن الدَّعوة إلىٰ ثورةٍ فكريَّةٍ أو ثورةٍ في الفكر؟ الفكر في ثورةٍ دائمةٍ فما داعي الدَّعوة لثورةٍ فكريَّةٍ، وما الجديد الذي سيكون في هٰذا الطَّرح، بل ما الجديد الذي ستقدِّمه الثَّورة الفكريَّة التي ندعو إليها عن الثَّورة الفكريَّةِ المستمرَّة؟

هل يمكن القول إنَّهَا ثورةٌ فكريَّةٌ في ثورةِ الفكر؟

نعم، هي كذٰلكَ تماماً، كما أنَّ هناك ثورةٌ في الثَّورة، كذٰلكَ فإنَّ الثَّورة الفكريَّة التي يجب أن تكون مع الثَّورة الشَّاملة هي ثورةٌ في الثَّورة الفكريَّة.

هنا نحن أمام مستويين من الثَّورة الفكرية التي يجب أن ترافق الثَّورة الشَّاملة.

صحيحٌ أنَّ الإبداع الفكريَّ في حالة ثورةٍ دائمةٍ كما أبنَّا إلا أنَّ الفكر بوصفه بيئةٌ لا يختلف عن البيئة الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة يعرف الجديد ولٰكنَّهُ الجديد الدَّائر في فلك التَّقليديِّ. أي إنَّ الإبداع الفكريَّ بتراخي الاستمراريَّة الزَّمنيَّة ينسجم مع المعطيات السَّائدة في بيئته المجتمعيَّة؛ النَّفسيَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والسِّياسيَّة والتَّربويَّة... فيأتي الفكر بالجديد النِّسبيُّ في بيئته، ولٰكنَّ هٰذا الجديد في بيئته إمَّا أنَّهُ تقليديٌّ غير مثمرٍ، مثل: جَلَسْنَا وَالماءُ مِنْ حَوْلِنَا كَأَنَّنا قَوْمٌ جُلَّسٌ مِنْ حَوْلِهِمْ مَاءُ. أو أنَّهُ مسبوق في بيئةٍ أُخْرَىٰ مزامنةٍ له أو حَتَّىٰ سابقةٍ عليه.

هٰذا ما يوصف بأنَّهُ الرُّكود. الرُّكود الفكريُّ جزءٌ من سياق الركود المجتمعيِّ بمختلف الميادين والمستويات النفسيَّة والتَّربويَّة والسِّياسيَّة والأخلاقيَّة والعلميَّة

والتَّعليميَّة... عندما يصل المجتمع إلىٰ حالة الركود يصبح كالمستنقع الذي يستهلك ذاته بذاته لأنَّهُ مغلقٌ غير قابل للتَّجدُّد. وعندما يصبح المجتمع في حالة الركود هٰذه لا يخرجه منها إلا الثَّورة. هٰذه الثَّورة أساسها، قواعدها، دعائمها، حواملها، رائدها هو الفكر، الإبداع الفكري. أي إنَّ الفكر قام بثورة في ذاته ومهَّد للثَّورة الشَّاملة، وبهٰذا المعنى بدأت القول بأنَّ الثَّورة الفكريَّة في الافتراض المنطقيِّ سابقةٌ ومتزامنةٌ ولاحقةٌ علىٰ الثَّورة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة.

وعلىٰ هٰذا الأساس لا يمكن القبل بأنَّ الثَّورة السُّورية أو التُّونسيَّة أو المصريَّة أو الليبيَّة نبعت من العدم، أو أنَّ محض الظُّلم أو الاستبداد هو الذي أدَّى إلىٰ الثَّورة. الحقيقة التي لا يراها كثيرون أنَّ تراكم الإبداع الفكري الثائر علىٰ مدار كثير السَّنوات السَّابقة هو الذي شحن العقل الاجتماعيَّ رويداً رويداً وجعله مستقطباً جاهزاً للثَّورة في اللحظة المناسبة، اللحظة المناسبة للثورة يصعب تحديدها بقرارٍ أو اقتراحٍ.

ثَمَّة شرارةٌ هي التي تقدح الثَّورة، ولولا أنَّ الشَّعب مهيأ أصلاً بجهود الإبداع الفكري المتراكمة لما كانت الثَّورة. والدَّليل علىٰ ذٰلكَ في سوريا مثلاً أن الثَّورة أشعلها اعتقال أطفال درعا. ولٰكن ليست هٰذه هي المرَّة الأولى التي يتمُّ فيها اعتقال أطفالٍ وتعذيبهم في سوريا، كثير من مثل هٰذا الاعتقال والتَّعذيب تم علىٰ مدار عشرات السِّنين السَّابقة ولٰكنَّ الثَّورة لم تقم. لماذا قامت لأطفال درعا؟ قامت لأطفال درعا لأنَّ شحن الثَّورة الفكريَّة قد وَصَلَ مداه الكافي لتعاطف النَّاس واندفاعهم في الثَّورة.

ولٰكنَّ هٰذه الثَّورة المتواصلة، هٰذه الثَّورة الفكريَّة التي أدت أو تؤدِّي إلىٰ الثَّورة تصبح وراء الثَّورة عند اندلا ع الثَّورة، تصبح الثَّورة هي الفاعل المحرك للفكر

بدل أن يكون الفكر هو المحرك للثَّورة. هنا يحدث انقلاب في الأدوار تفرضه طبيعة الثَّورة. الثَّورة بركانٌ أكبر من الجميع ويفرض إيقاعه علىٰ الجميع وعلىٰ كلِّ الميادين.

هنا يصبح الفكر بحاجةٍ ماسَّةٍ إلىٰ ثورةٍ في ثورته هو.

الحقيقة التي يجب أن ندركها هنا هي أنَّ معطيات الثَّورة المتفجِّرة بقوَّةٍ وزخمٍ كبيرٍ هي التي تقدح عقول المفكرين وتفرض عليهم معطيات جديدة في التَّفكير والتَّدبير والإبداع. الثَّورة الشَّاملة هنا هي التي تقود الثَّورة الفكريَّة. لا تقودها بمعنى القيادة وإنَّما تقودها من حيث تفرض عليها أسئلةً ومشكلاتٍ أكبر بكثيرٍ من الطَّاقات العاديَّة لأطر الفكر التَّقليديِّ أو السَّابق.

في الثَّورة الشَّاملة يجد المفكرون أنفسهم أمام معطيات تتحدَّى قرائحهم وتفرض عليهم طرقاً جديدة من التَّفكير والتَّحليل، وتفرض عليهم مشكلات لم تكن موجودة أصلاً في السِّياق العاديِّ للحياة السَّابقة علىٰ الثَّورة.

المفكِّر الذي لا يخرج من أطر التَّقليديَّة التي اعتادها في التَّفكير لا يمكن أن يواكب الثَّورة ولا يفهمها، وغالباً ما يقع في فخِّ معاداة الثَّورة، لهٰذا إن جاز أن يبقى في حلبة الفكر.

إذن الثَّورة الفكريَّة ضرورة يفرضها الواقع الجديد الذي تفرضه الثَّورة. نحن نتحدَّث ونحن لم نزل في خضم الثَّورة. في خضم الثَّورة تثور مشكلاتٌ كبرى لم تكن لتخطر في البال تستدعي تدخُّل المفكِّرين واقتراحاتهم وحلولهم. لا يوجد غير المفكِّرين قادرين علىٰ اجتراح الحلول وتقديمها. ولذلك فإنَّ مسؤوليَّة المفكِّرين كبيرةٌ وكبيرةٌ جدًّا في سياق الثَّورات. علىٰ الرَّغْمِ مما يبدو لهم من أنَّ الأمور في حالةٍ لا يمكن معها الوصول إلىٰ حلٍّ. إذا لم يبرز هنا دور المفكر فمتى يبرز؟ إذا استسلم المفكرون هنا فمن ذا الذي سيصمد؟

لا يمكن القول إنَّ دور المفكرين بعد انتصار الثَّورة. إن تنصُّل المفكرين من مسؤوليتهم في ثورتهم الفكريَّة لمواكبة معطيات الثَّورة الشَّاملة واجتراح أفضل الحلول فإنَّ الثَّورة ستطول وستعظم التَّضحيات والخسائر. والقول بأنَّ مهمَّة المفكِّرين ستكون بعد الثَّورة كلامٌ انهزاميٌّ بلا معنى. لأنَّ الثَّورة ستفرز مفكِّرين جدداً لم يكونوا مفكِّرين فيما قبل. ولن يكون لمن استسلم أو انهزم فرصة أو مجالٌ أو حَتَّىٰ حقٌّ في رسم ملامح ما بعد الثَّورة، لأنَّهُم أصلاً عجزوا عن استيعاب الثَّورة والقيام بما يجب القيام به في الوقت المناسب.

الثَّورة الفكريَّة بعد الثَّورة مسألةٌ موجودة، وهي لا تختلف في قيمتها وأهميتها عن الثَّورة في أثناء الثَّورة، ولا ما قبل الثَّورة. إنَّهَا استيعابٌ لمتطلبات المجتمع استيعاباً استراتيجيًّا بعيد الأفق وليس استيعاباً مرحليًّا ترقيعيًّا. ولذلك قلت من عجز عن استيعاب متطلبات الثَّورة ومتغيراتها ومشكلاتها لا يحقُّ له أن يتنطَّع لتقديم الاقتراحات لسيرورة الفكر والحياة والمجتمع ما بعد انتصار الثَّورة.

حسناً، إذن الثَّورة الفكريَّة المزامنة للثَّورة الشَّاملة تنصبُّ علىٰ محاور أربعة:

أولاً: ثورة المفكر ذاته علىٰ عقله وطريقة تفكيره وطريقة تناوله المشكلات والأفكار.

ثانياً: ثورة في الفكر ذاته، ثورة علىٰ المعطيات الفكريَّة التَّقليديَّة والانتقال إلىٰ مستوى جديدٍ يتواكب مع متطلبات المرحلة الجديدة والأفكار التي تلبيها وتناسبها.

ثالثاً: ثورة علىٰ مفرزات الثَّورة التي يجب وضع حدٍّ لها، فالثَّورات تفجِّر الطَّاقات الكامنة والمكبوتة من كلِّ نوعٍ متوقَّعٍ وغير متوقَّعٍ. ويبدو المجتمع من

خلالها بأسوأ الصُّور التي يمكن تخيلها، والتي لا يمكن تخيلها في بعض الأحيان، وخاصَّة إذا طال أمد الثَّورة.

رابعاً: ثورة استراتيجيَّة تحدِّد احتياجات المجتمع ما بعد الثَّورة.

بعد انتهاء الثَّورة، وخاصة الثَّورة التي يطول الأمد بها حَتَّىٰ تنتصر تفجر مشكلات تبدو مستعصيةً علىٰ الحل، وتفجِّر مشكلاتٍ وهميَّةً من مختلف المستويات، وهميَّةً ظاهرةً، وهميَّةً ظاهرةً علىٰ أنَّها جوهريَّةٌ، وهميَّةً مستترةً... ومشكلاتٍ حقيقيَّةً من مستويات وأنواع الوهميَّة السَّابقة، ومشكلات ملحة من مختلف المستويات أيضاً... ومشكلات لا تظهر... واحتياجات من مختلف المستويات والأنواع السابقة.

وفي هٰذا السِّياق يحدث صراعٌ علىٰ تلبية الاحتياجات والأولويات من دون فهمها بسبب حالة التَّوتُّر والإجهاد والفوضى والضَّبابيَّة. هنا تأتي مهمَّة المفكِّر في الكشف عن الزِّيف والحقِّ، والضَّروري والهامشي، ورسم الاستراتيجيات الأفضل ليس لبدء البناء وحسب بل لما بعد ذٰلكَ بكثير. فما بعد الثَّورة فرصةٌ تاريخيَّةٌ للمجتمع للخروج من البنية السَّابقة خروجاً مجدياً ومثمراً إذا لم يستثمره المجتمع فإنَّ النِّظام السَّابق سيعيد إنتاج ذاته بأكثر من طريقةٍ، وسينجح في الانقلاب علىٰ الثَّورة وعودة النِّظام القديم، ليس بشخوصه وإنَّما ببنيته وطريقة تفكيره وإدارته. وهٰذا وحده ضرورةٌ كافية للثَّورة الفكريَّة.

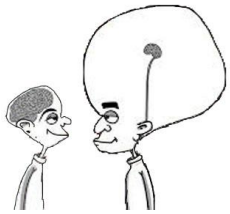

الفصل الرابع

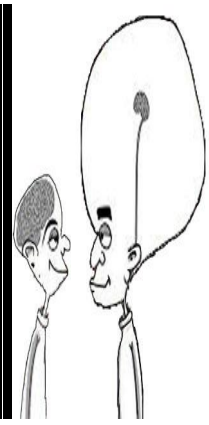

ثورة في الوعي السياسي

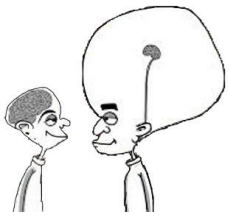

من باب تجزيء المشكلة نسلِّط الضَّوء علىٰ مشهدٍ من الوعي السِّياسي العربي. الوعي السِّياسيُّ العربيُّ بالمجمل والتَّفصيل أدنى بكثيرٍ جدًّا من أن يحمل مسؤوليَّة بناء دولةٍ أو قيادة دولةٍ. قيادة الدَّولة مسألةٌ سهلةٌ نظريًّا وحَتَّىٰ عمليًّا، ولٰكنَّها لن تكون أكثر من قيادة الحمار لجملٍ مربوطٍ بذيله[٦]...

مثل هٰذه الطَّريقة في القيادة هي إدارة الْمُدار، وتسيير الْمُسيَّر. القيادة الحقيقيَّة هي التي تقود المقاد من حال إلىٰ حال أفضل، وتحقِّق نقلات نوعيَّة غير تلقائيَّة، فأيُّ آذنٍ يستطيع فعل ما يفعله أيُّ مسؤولٍ قائدٍ من توقيع البريد والصُّراخ بالموظفين والعمال.

عندما أتحدَّث عن انعدام الوعي السِّياسي فأنا أعني الوعي السِّياسيَّ عن السِّياسي وعن المسوس معاً. وكلاهما يفتقر إلىٰ الحدِّ الأدنى الكافي من الوعي لتيسير العمليَّة السِّياسيَّة تيسراً حسناً لا تلقائيًّا بقوَّة الاندفاع الطَّبيعي والتَّدافع المفروض بطبيعة العلاقات السِّياسيَّة العالميَّة والإقليميَّة.

(٦) .كتب هٰذا المقال في ٢٠١٥/٢/٢١م في الهيئة السورية للإعلام بتاريخ ٥/ ٣/ ٢٠١٥م.

من دلائل انعدام الوعي السِّياسي في العالم العربيِّ والإسلاميِّ أنَّهُم يتابعون منذ عشرات السِّنين كيف أنَّ كلَّ الدول التي فيها تنافسٍ انتخابيٍّ يتنافس فيها حزبان أو ثلاثة بالأكثر، ومع ذَلكَ فإنَّ كلَّ مواطنٍ في أوطاننا له من الكفاءة الكفاءة أو البكالوريا وما فوق يصرُّ علىٰ أن يكون هو رئيس حزب ولو لم يكن فيه غير جنابه.

منذ أكثر من عشرين سنةٍ وأنا أقول: علىٰ الغرب، علىٰ أوروبا وأمريكا أن يتعلموا الدِّيمقراطية من بلادنا. وهل يمكن أن تقارن ديمقراطيتهم بديمقراطياتنا؟

قطعاً لا تجوز المقارنة. الدِّيمقراطيَّة في بلادنا منفتحةٌ آخر انفتاح، وتصل إلىٰ سقف سقف الدِّيمقراطيَّة، بَيْنَما الديمقراطيَّة الغربيَّة محدودةٌ، مسكينةٌ، الخيارات مغلقة أمام المواطن الغربي، أمَّا أمام المواطن العربي فالخيارات أمامه مفتوحةٌ، مفتوحة فتحة واسعة وعلىٰ الآخر.

في أوروبا وأمريكا يخوض انتخابات الرئاسة اثنان، ثلاثة أشخاص بالأكثر، وفي التَّصفيات يكونون أربعة أو خمسة بالأكثر. يعني المواطن مسكين، ملزمٌ بواحدٍ من اثنين أو ثلاثة. أمَّا في بلادنا يا سادة فلا توجد هٰذه الإكراهات للمواطن. الذين يقدمون أوراقهم للتَّرشُّح بعشرات الآلاف... عندما كانت في مصر ديمقراطيَّة، أيَّام ترشُّح محمَّد مرسي، رأينا طوابير المواطنين المتقدِّمين للتَّرشُّح لرئاسة الجمهوريَّة في مصر بالآلاف... وخلصت اللجنة أخيراً إلىٰ إبقاء اثني عشر مرشَّحاً. في أول انتخابات ليست انتخابات في سوريا علىٰ رغم كلِّ شيءٍ ترشَّح ثلاثٌ وعشرون مواطناً، ولأسبابٍ أمنيَّة بقي ثلاثة فقط كما وعد شريف شحادة قبل الانتخابات بأشهر عندما قال: سيخوض الانتخابات ثلاث مرشحين.

للأسف لا يوجد حالات أُخْرَىٰ لذكرها مثالاً. هاتان هما الحالتان الوحيدتان اللتان جرى فيهما ترشيح لانتخابات رئاسيَّةٍ في العالم العربي منذ ستين سنة؛ واحدةٌ حقيقيَّةٌ في مصر، وواحدةٌ شكليَّة في سوريا.

ولٰكنَّ هاتين الحالتين تعكسان عكساً أنموذجيًّا لما ستكون عليه الأمور فيما لو فتحت أبواب الترشح الحرِّ في العالم العربي. ستجدون ما لا يقل عن نصف المواطنين مصطفاً علىٰ أبواب لجان استلام طلبات الترشح لرئاسة الجمهورية... ورُبَّما تجدون من يعلق قائلاً: يرجى من المواطن الذي لا يريد التَّرشح للرئاسة أن يرفع يده.

فهل الغرب يعيش ديمقراطيَّة أوسع من ديمقراطيتنا؟

لا تبتعدوا كثيراً، الأمر لا يتوقف علىٰ الرئاسة فقط. تعالوا ننظر إلىٰ مشهد الانتخابات النيابيَّة التُّونسية التي تجري في هٰذه الأيام، تخيلوا أنَّ مئة وتسعين حزباً تتنافس علىٰ كراسي البرلمان التي يبلغ عددها ٢١٧ كرسيًّا... كيف يمكن أن تبنى دولة أو يحدث توافق تحت أيِّ ظرف من ظروف النَّتائج؟

تونس التي تخلَّصت من حكم الفرد والحزب الواحد وتخوض تجاربها الديمقراطيَّة الأولى هٰذه هي. تونس ليست استثناءً أبداً، فلا يوجد بلد عربي إلا فيه عشرات الأحزاب.

بعيداً عن السُّخرية وواقعنا لا يحتمل إلا السُّخرية، أيُّ ديمقراطيَّة هٰذه التي تفرز عشرات الأحزاب؟ هل هٰذه الديمقراطيَّة؟ أن يكون لكلِّ شخصٍ حزب، وأن يترشَّح كلُّ مواطنٍ لرئاسة الجمهورية؟ أيُّ ديمقراطية هٰذه؟!! هٰذه ليست عبثيَّة أيضاً، إنَّها غباء هستيري مكفولٌ بوكالة رسميَّة.

أتكلَّم هنا عن الدُّول التي فيها مناخ حريَّة وديمقراطيَّة ولا أتكلَّم عن الأنظمة المتفرِّدة في السُّلطة. الأنظمة المتفرِّدة في السُّلطة تحتاز الطرف المقابل لهذه الغباوة الهستيريَّة، التي يمكن اختصارها بقصتين. الأولى نقاش بَيْنَ سوري وأمريكي في التَّفاخر بالديمقراطيَّة، سأل السُّوري الأمريكي:

ما دلائل الدِّيمقراطية التي تدعيها؟

قال الأمريكي: أنا الآن أستطيع أن أقف أمام البيت الأبيض وأسبُّ الرَّئيس كلينتون ولا أحد يعترض عليَّ أو يسألني ماذا تفعل.

فقال السُّوريُّ: حلو، حلو، وأنا أيضاً أستطيع الآن أن أقف أمام القصر الجمهوري بدمشق وأسبُّ الرَّئيس كلينتون ولا أحد يعترض عليَّ أو يسألني ماذا تفعل.

أما القصَّة الثَّانية، وهي للمصادفة مرتبطة أيضاً ببل كلينتون الذي التقى بالرئيس حافظ الأسد، وقد علم أنَّهُ يريد ترشيح نفسه للمرة الرَّابعة، فقال له:

. سأهديك أجهزة فرز أصوات الناخبين الإلكترونية التي اخترعناها مؤخراً.

سأله حافظ الأسد: وما ميزتها؟

قال كلينتون: بدل أن يطول الفرز ويضيع الوقت، تقوم هي بفرز الأصوات وتعطيك النَّتائج بعد اثني عشر ساعة من انتهاء الانتخابات.

فقال حافظ الأسد: قديمة، أجهزتنا تعطيك النَّتائج قبل الانتخابات بأسبوع.

هٰذه هي ديمقراطيتينا أيُّهَا السَّادة. أفلا يجدر بالعالم الأوروبي والأمريكي أن يأتي ويتعلم منا؟!

ليس بسبب البرد الذي يحاصر المشردين السُّوريين والعراقيين والصواماليين وليس لديهم ما يسهم في تقديم بعض الدفء لهم، وليس بسبب انعدام الوقود أو قلتها لا سمح الله، فالوقود العربي أكثر من ثلثي وقود العالم، ولٰكن بسبب الحقيقة... بسبب الحقيقة علىٰ كلِّ الأحزاب العربيَّة التي وجدت قبل الربيع العربي وحَتَّىٰ في أثنائه أن تلقي بنفسها حطباً للمدافئ حَتَّىٰ لا تجد نفسها وقد ألقيَ بها في مواقع أخْرَىٰ... أخْرَىٰ...

هٰذه هي الطَّريقة الوحيدة للانسحاب بشرفٍ... أشرف شرفٍ يمكن أن نوفِّره لهم.

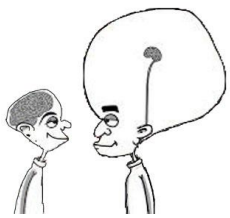

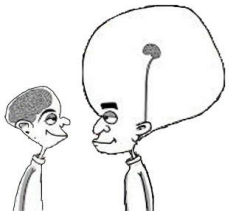

الفصل الخامس

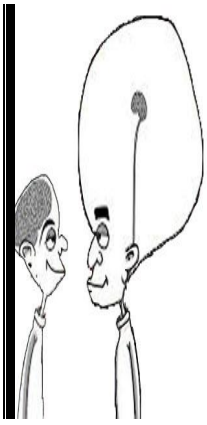

ثورة في الإعلام العربي

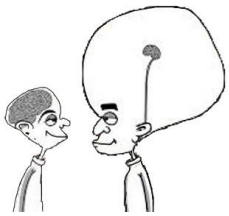

كم هو مريعٌ مؤلمٌ مريبٌ اليوم بعد نصف عقدٍ كاملٍ من هزَّات الرَّبيع العربي وزلازله السِّياسيَّة والفكريَّة والإعلاميَّة البطيخيَّة التي غيَّرت طبائع التَّفكير العالميِّ علىٰ هٰذه الأصعدة جميعاً أن نقف لنرى أنَّ الكائنات الرَّخويَّة والإشنيَّة والسِّيتوبلازميَّة التي تتحكَّم بالإعلام العربي وتضبط أيقاعه وتدوزن صوته ما زالت هي هي منذ عشرات السنين(٧).

الغريب العجيب المريب أنَّ هٰذه العشرات من السِّنين بدأت حصراً مع الاستقلال عن الاستعمار والثَّورات القوميَّة والعلميَّة والعلمانيَّة والتَّقدُّميَّة علىٰ الرَّجعيِّين أذناب الاستعمار!!!

سيستنتج بعضهم سفاهةً أنِّي مع الاستعمار، أو أنِّي أدافع عن أذناب الاستعمار أو ما يشبه ذٰلكَ من ترَّهات الاستنتاجات... هناك أذناب للاستعمار بكلِّ تأكيدٍ، ولٰكنَّ أذناب الاستعمار الذين حاربهم هٰؤلاء الوطنيون، والرَّجعيِّين الذين حاربهم هٰؤلاء التَّقدُّميُّون، والمتآمرون علىٰ الأمَّة الذي حاربهم

(٧) .كتب هٰذا الفصل في ١٩/ ٥/ ٢٠١٥م، ونشر في سراج برس بتاريخ ٢/ ٦/ ٢٠١٥م.

هَؤلاء المخلصون للأمَّة هم المخلصون الحقيقيون والوطنيون الحقيقيون والتَّقدُّميُّون الحقيقيُّون، أيامهم كانت الدِّيمقراطيَّة والحرِّيَّة والوطنيَّة في أبهى حللها وأفضلها، والذي حملوا لهذه الشِّعارات هم الأعداء الحقيقيون للوطن والحرية والدِّيمقراطيَّة، هم الأنظمة التي صنعت مفكرين من ورق، وإعلام من ورق، لا قيمة حقيقيَّة لهم في الميزان، ولَكنَّهُم بإعلامهم جعلوهم نجوم الإعلام ونجوم الفكر والتَّنظير ليمسحوا الحقيقة التي كانت تعيشها العرب قبل ظهور هذه الطُّغَم التي صادرت الحرية والكرامة ونهبت أموال الشَّعب والوطن، ونشرت الفساد.

لا أتحدث عن أشخاص أتحدث عن المبدأ والآلية والأيديولوجيا. الأشخاص يأتون ويذهبون. بنيتهم، طبيعتهم التي تتكرَّر، يتمُّ استنساخها وإعادة إنتاجها. الأصنام التي لمعها وأبرزها وشهرها وقدَّسها وعبدها الإعلام العربي منذ عشرات السِّنين، منذ زمن الاستقلال تحديداً، هي ذاتها أشخاصاً أو إعادة إنتاجها من خلال فراخها وصيصانها ومخلفاتها...

لا أتحدَّث عن فهم أو غباء في بنية هَؤلاء الأشخاص أتحدَّث عن بنية تفكيرٍ، طريقة تفكيرٍ، ما يقومون بتسويقه وطريقة تسويقه. هم في حقيقة الأمر قسمان قاسمهما المشترك هو الولاء الأعمى للسُّلطان وإن برزوا معارضين ناقدين للسُّلطان.

القسم الأول هم المتكلمون المتشدِّقون الذين لا يخلون من الفهم والدَّهاء وحَتَّىٰ الثَّقافة ورُبَّما الثَّقافة الواسعة في بعض الأحيان، يتم تلميعهم وتسويقهم وتعظيمهم ونشرهم وإشهارهم وتكرارهم بأحد شرطين:

أولهما الولاء التَّبَعِيِّ بالمعنى الاستخباراتي، أي عميل، ينفِّذ ما يطلب منه أو يوحى إليه به من المخبر الرَّسول.

ثانيهما أن يكون معادياً لمن وما يعادية قائد الوطن في حقيقة تفكيره ورغبته ومصالحه، وإن بدا من قائد الوطن خلاف ذَلكَ لضرورات التَّسويق التِّجاري والماركة القياديَّة المسجَّلة.

القسم الثاني هم البلهاء الفارغون، أشخاص لا لهم بالعير ولا بالنَّفير، وسقف طموحات الواحد منهم أن يكون من حملة حقائب الإعلاميين، جاءات بها مخابرات الأنظمة ومحسوبيات الفساد ونفختهم وسوقتهم وسلمتهم المناصب الإدارية والإشرافيَّة علىٰ وسائل الإعلام ومنتديات الفكر والثَّقافة، وراحوا يصوغون النَّظريَّات، ويتحكَّمون بالمثقفين والمبدعين... يتكرَّمون عليهم بالظُّهور إذا رضوا عنهم ويمنعونهم من الظُّهور إذا لم يرضوا عليهم... ويرفعون من شأن من شاؤوا ويخفضون شأن من شاؤوا...

اختلف مع عادل إمام مرَّة رئيس تحرير كبرى الصُّحف المصريَّة، بسبب فتاةٍ أو ممثلةٍ أو شيء من هٰذا القبيل، فقام رئيس التحرير بمنع نشر أيِّ خبرٍ عن عادل إمام مهما كان حَتَّىٰ تصالحا بعد سبع سنوات... فتمَّ فك الحظر. هٰذا مثالٌ واحدٌ تجد مثله عشرات ومئات الأمثلة تحت قبَّة أيِّ وسيلةٍ إعلاميَّةٍ عربيَّةٍ. هٰذا لخلاف شخصيٍّ علىٰ مسألة شخصيَّة فما بالكم فيما يتَّصل بالنِّظام والسَّادة الحكام؟!

عشرات السِّنين وهٰذا الإعلام السيتوبلازمي المائع المتمائع يسوِّق نظريَّات الوحدة العربيَّة تسويقاً تقزيميًّا حنوناً شفافاً ليجعل تحقيقها محالاً. لا أحسب أبداً أنَّهُم كانوا يريدون بحال من الأحوال أن تتحقَّق الوحدة العربيَّة، ولذلك سوقوها تسويقاً يمنع التَّفكير في الطَّرائق الجادَّة والجدِّيَّة والحقيقيَّة التي توصل إلىٰ الوحدة العربيَّة. عندما حصروا تفكير الشَّعب العربي بمسارات محدَّدة للوحدة العربيَّة فقد

حجبوا عنه إمكانات التَّحقُّق الفعليَّة التي يجب أن تسير فيها الشُّعوب. هم ينفِّذون مخطَّطات الأنظمة، أشخاص الأنظمة العربيَّة الذين لا يريدون تحقيق الوحدة، ولا يسمحون بتحقيق الوحدة، لأنَّهُم باعترافات ظهرت مؤخرًا ما وضعوا ليمنعوا تحقيق الوحدة العربيَّة وتسوية الصِّراع العربي الإسرائيلي.

أيُّ حديث من خرافات إعلام الأنظمة العربيَّة عن وحدة عربيَّة وهمٌ هوى وأكل هوا...

كلُّ فلسفات إعلام الأنظمة العربيَّة في الوحدة العربيَّة مسخرة وأكل هوا...

لا وحدة بأيٍّ من طرق الوحدة التي سوقتها الأنظمة العربيَّة عبر إعلامها ومفكريها وإلا لتحقَّقت علىٰ مدار ستين أو سبعين سنة من التَّفاوض والتآخي. الوحدة العربيَّة لن تكون إلا بالقوَّة وفقط بالقوَّة وغصباً عن شوارب الحكام والأنظمة والشُّعوب، وأيُّ حديثٍ غير ذَلكَ وهم.

ويتساءلون أين المثقَّف العربي من الربيع العربي؟

لماذا لا نرى المثقفين علىٰ رأس الاحتجاجات علىٰ الظُّلم والاستبداد والوحشيَّة؟

لماذا وقف الجميع مع الأنظمة في بطشها ووحشيتها وحاربوا ثورات الشُّعوب؟

لا يمكن إنكار وجود سلبية عند المثقف العربي، ولٰكنَّ السُّؤال الذي يجب أن نسأله: ماذا يستطيع المثقف أن يفعل في ظلِّ هٰذه السَّيطرة المستحكمة علىٰ وسائل الإعلام من الكائنات الإشنية وفصيلة الرخويات المائعة المتمايعة التي

يتشبه الزئبق بها من تقولبها وتحويرها وتدويرها وركوبها الموجات كلها من دون تغير في جوهرها وطبيعتها وحقيقتها.

كيف أستطيع أن أفهم مثلاً أن محمد حسين هيكل هو رجل عبد الناصر ورجل حسني مبارك ورجل الثَّورة ورجل السِّيسي... ستين عاماً بقي في موقعه ووقف مع كل هؤلاء ولم يتغيَّر؟ أيد الثَّورة وأيد الانقلاب علىٰ الثَّورة؟

كيف أستطيع أن أفهم مثلاً أنَّ طيب تيزيني أسلط لسان معارض، الذي صدع العقول بهجومه علىٰ الاستبداد والفساد والدَّولة الأمنيَّة لم يقف ساعة مع الثَّورة ولم ينطق بكلمة إدانةٍ واحدةٍ لممارسات النِّظام علىٰ مدار الثَّورة، بل واكب تنظيراته تحت رعاية النِّظام؟!

لا أريد أن أعدِّد فالأسماء كثيرةٌ جدُّ كثيرةٍ. وما أكثر أشباه الأذكياء أو قولوا الأذكياء الذين يختارون مواقف اللعب علىٰ الحبلين في الأزمات فيغلِّفون تنظيراتهم بالعبارات الطَّنَّانة الرَّنانة التي لا تفهم لها رأساً من أرجل، وتضرب علىٰ الحدين، حَتَّىٰ يركبوا موجة من ينتصر. ولهم جمهور من المنافقين أمثالهم الذين يلتفون حولهم لأنَّهُم يركبون القارب ذاته.

علىٰ أيِّ حالٍ، إنَّ الثَّورة التي تنجز نصف أهداف الثَّورة تدمر الثَّورة وتدمر المجتمع. الثَّورة التي لا تجتث الخلل من جذوره تكون قد حفرت قبرها بيدها.

وعلىٰ ذَلكَ فإنَّ ثورات العرب كلها ستظلُّ من دون أدنى قيمة ما لم تنفض الإعلام نفضة تنظيفيَّة شاملةً، وتبنيها من جديد علىٰ أساس الحريَّة والعدالة والإدارة النَّاجحة بمعايير مهنيَّة واحترافيَّة بعيدة البعد كله عن الأهواء والميول الشَّخصيَّة. لا يمكن تحقيق العدالة المطلقة ولَكنَّهَا يجب أن تكون هدفاً.

كيف يمكن أن تنجح الثَّورة إذا بقي أعلام إعلام النِّظام القديم هم سدنة الإعلام الجديد؟

لقد كان إعلام حسني مبارك ونظامه هو العامل الحاسم والأساسي في استرداد السُّلطة من الثَّورة والانقلاب علىٰ الثَّورة والقضاء عليها وتشويهها.

عالمنا العربي بحاجة إلىٰ ثورة شاملة في الإعلام بما هو إعلام وثورة شاملة أيضاً في كل مُؤسَّسات الإعلام وإدارته ومُؤسَّساته. لا يمكن أن ننطلق إلىٰ الأمام، ونبدأ البناء، ونخلف وراءنا إعادة إنتاج الفساد والخلل وتلميع الأقزام والتَّافهين... إذا لم نبن مُؤسَّسات إعلاميَّة احترافيَّة علىٰ غرار المؤسَّسات إمبراطوريات الإعلام الغربية التي تعرف مصالح وطنها أكثر من السِّياسيين وتدير الرأي العام الخاص والعام بما يخدم مصالح الوطن. فهل نصل إلىٰ ذَلكَ؟

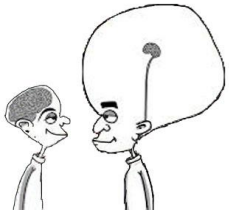

الفصل السادس

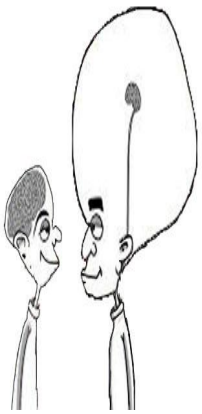

ثورة في الوجدان

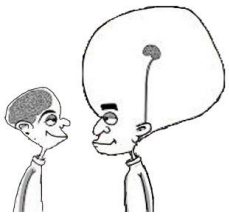

من قلب النار أصرخ بكم فلا تسمعوا، ولا تسمعوا، ورُبَّما لن تسمعوا. من يناديكم من قلب النَّار تلقون عليه الوقود ليزداد احتراقاً وكأنَّكم تهربون من ضمائركم، ولا تدرون أنَّكم ستكونون في السَّعير ذاته بعد حين(٨).

يا أمَّة ضحكت علىٰ لحيتها كلُّ الشعوب والأمم، متى تصحون من نومكم؟

بربكم متى تستفيقوا؟

ويا ليت أنَّا أمَّةٌ نامت فقط.

نحن الأمَّة التي تهتف تشجيعاً لزناة الأرض وهم يهتكون عرضها!!!

هل رأيتم أمَّة مثل أمَّتنا؟

إنَّ الذين جلبوا زناة الأرض ليهتكوا بعرضهم لا يمكن أن يكون خيرٌ علىٰ يدهم أبداً.

ويقولون لك: أمَّتنا مباركة ولن تموت!

أنا لا أخشى علىٰ أمَّة العرب أن تموت أو تندثر.

لن تندثر.

---

(٨) .كتب هٰذا الفصل في ٩/ ٢/ ٢٠١٥م، ونشر في سراج برس في اليوم ذاته تحت عنوان: من قلب الوجع أصرخ بكم.

ولَكنَّهَا ستكون ممسحةً لكلِّ أوساخ الأرض.

ستأخذ الحميَّة كثيرين، سيعترضون، سيحتجون، سيقولون نحن أمَّة العزِّ، نحن أمَّة المجد، نحن ونحن ونحن... وأيسر الاعتراضات ستكون قائلة: إنَّك توهن عزيمة الأمَّة، إنَّك متشائم.

ما أقوله ليس من باب التَّشاؤم كما قد يظنُّ بعض أو يتخيَّل، ولا انهزاميَّة، وإنَّمَا هو من باب التَّقريع والتَّعنيف لتعرف النَّاس أين تسير وماذا يصير... يجب أن يشتدَّ القرع والتَّعنيف لأنَّ نوم الأمَّة عميقٌ أعمق من أن يطاق أو يحتمل. من غير الممكن تصديق ولا قبول أنَّ الأمور بوضوحٍ يفقأ عين الجاحد وهم لاهون، بل يا ليتهم لاهين، إنهم مساهمون في العدوان علىٰ أمتهم، مساهمتهم في العدوان علىٰ أمتهم للأسف، للأسف الذي ما بعده أسف، تتجلى في مختلف الصور والأشكال والأنواع والمستويات.

أقربها مما لا ينتبه إليه أحد، ولا يعيره أهميَّة علىٰ شديد خطورته أنَّ الأمَّة تذبح من الوريد إلى الوريد وأكثر أبناء الأمة مشغولون بالتَّلطيش والتَّطبيق والشَّخلعة والمسخرة والميوعة علىٰ صفحات التَّواصل الاجتماعي وعلىٰ أرض الواقع؛ صفحات التَّواصل الاجتماعي التي سخرها الله لتكون نبراسَ تواصلٍ ينهض بالأمَّة؛ أمة بالجملة وأفراداً وشرائح اجتماعيَّة... تحولت إلىٰ ميادين سفاهةٍ وهدر وقت بالجملة من دون حساب، مع ما يؤدِّي إليه ذَلكَ من تكريس قيم السَّفاهة، وتحطيم قيم المروءة. الأمر ليس سهلاً أبداً كما تتخيَّلون، الأمر أعقد وأخطر بكثيرٍ مما تتخيَّلون.

دعكم من هٰذا. هٰذا ليس إلا حالة عارضة يمكن أن تجد من يختلف فيها، المأساة أكبر وأخطر كما بدأنا بأمثلة لا تفترق كثيراً عن الحقيقة. انظروا في واقع

أمتنا اليوم كيف أننا من دون مبالغة ندعو الغزاة ونرحب بهم، نصفق من ينتهك أرضنا، نهلل لمن يقتلنا!!!

هل يوجد أبشع من هٰذه الصُّورة علىٰ وجه الأرض؟

وفوق ذٰلكَ كلِّه يا ليت الكل نيام، لكان أعز وأحسن حالاً.

بعد ألفين وخمسمئة سنة من تحذير أفلاطون النَّاس من عيش وهم أهل الكهف، أهل الكهف الذين يرون الظِّلال ويحسبونها حقيقة ويحسبون أن هٰذه الظِّلال هي الحقيقة. ها هي أمَّتنا اليوم عادت إلىٰ الكهف باندفاعٍ مدهشٍ مربكٍ؛ ترى الأوهام حقائق، ولا تقتنع إلا بأنَّ الوهم هو الحقيقة. تضرب بالعصي علىٰ رؤوسها ضربات توقظ الأموات ليستفيقوا من هٰذا الوهم، ولا يفيقون.

أيعقل هٰذا؟

أيعقل أننا اليوم أنَّنا نستعين بمن لا يدين بديننا، ويرفض ديننا أن يعلمنا أصول ديننا، وندعوه ليجتهد في ديننا ويطوِّره، ويخلصه من (الشوائب)؟

أكثر من محطة تلفزيون عربية شهيرة تستضيف أناساً من هٰذه النمرة وتدفع لهم الأموال الطائلة من أجل أن يجتهدوا في الإسلام ويشرحوا للمسلمين (أخطاء الإسلام)!!!

يا للعجب!

من حق الغرب أن يدير مصالحه كيف شاء، هٰذا حقه وواجبه، علىٰ الرَّغْمِ من وقوعهم في أخطاء وازدواجيات تكسر ظهر المنطق، وهٰذا طبيعي، لأنَّ من يحارب الحقَّ بالباطل لا يمكن إلا أن يصدم بالمنطق والقيم الأخلاقية النبيلة.

ولٰكنَّ أن نجد أنَّ العرب حكومات وشعوباً يديرون حملة دفاع عن مصالح الغرب بجدارة ورُبَّما جدارة منقطعة النَّظير فهٰذا ما لا يمكن تصديقه... لا يمكن قبوله نعم، ولٰكن هو عصي علىٰ التَّصديق، إنَّهُ مفارقة لا يستوعبها العقل. ولذٰلك لا تسغربوا أن تشعروا بدوار البحر وأنتم في البر، ولا تستغربوا أن تروا أنَّ الدنيا بالمقلوب تدور. ولا تستغربوا إذا غداً رأيتم الشَّمس تشرق من الغرب.

من آمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت.

من أراد مصلحة دينه وعرضه ووطنه فليقل حقًّا أو فليصمت.

ما يحدث من تنظير وفذلكة غير معقول على الإطلاق...

أيقظوا الوجدان وفكروا بوجدان.

علىٰ أيِّ حالٍ، الأمَّة ليست مريضة. الأمَّة مسعورةٌ بنوعٍ من السعار حيَّر الأطباء في كل الأمصار.

إنَّ وجود بعض المظاهر الصِّحيَّة في الأمَّة لا يعني أنَّ الأمة بخيرٍ فالشَّجرة اليابسة تحمل بعض الأوراق الخضراء عندما تكون في حالة احتضار. بما يعني أنَّها فيها أمل بالحياة؛ فإمَّا أن تنسحق الحياة فيها وتموت، أو تحتاج إلىٰ إسعاف مناسبٍ لتعود إلىٰ الحياة. ولن تعود كلُّها إلىٰ الحياة؛ ما يبس لن يعود... ما يبس لن يعود.

فكروا فيها جيِّداً.

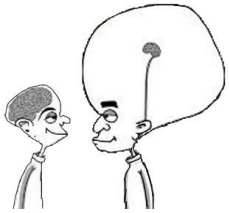

الفَصْلُ السَّابع

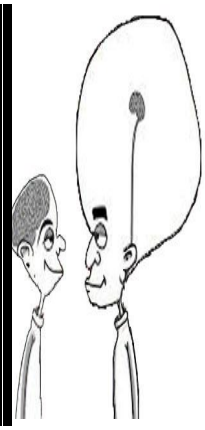

ثورة في الفهم

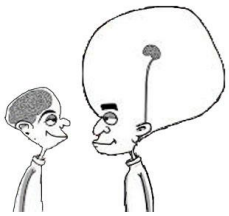

لا ينفصل الفهم عن التَّفكير الصَّحيح، ولا ينفصل التَّفكير الصَّحيح عن الفهم. والمشكلة التي تعاني منها البشرية قاطبة، ولا أضمِّن الاستثناءات، هي مشكلة الفهم(٩).

من الطَّبيعي أن تكون معاناة المجتمعات المتخلِّفة من مشكلة الفهم أكبر بكثير. نتيجة منطقيَّة لا أكثر. ولٰكنَّنا إذا تتبعنا البشر في مختلف المجتمعات والأمم صدمنا بسطحيَّة الفهم والتَّفكير والهروب من عناء التَّفكير علىٰ بساطته وسهولته الصَّادمة بقلَّة احتياجاتها.

في هٰذا الإطار تتكرَّر علىٰ مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ حكمةٌ رائعةٌ تكراراً كبيراً، تتكرَّر بصيغٍ مختلفةٍ وكثيرةٍ ولٰكنَّهَا في مضمونها واحدٌ، تقول: أن تخدع إنساناً أسهل بكثير من إقناعه بأنه مخدوع. هنا المشكلة الحقيقية للإنسان في تفكيره وتدبيره العقلي: إنَّهُ يقبل الانقياد للخداع أكثر من إقباله علىٰ الفهم الحقيقي، ويقتنع بالخرافات والأساطير والمتناقضات أكثر من اقتناعه بالحقيقة.

منطقيًّا من المدهش إدهاشاً بالغاً أن ترى المرء يقتنع بالمتناقضات الواضحة، والأفكار المبتورة الزائفة ويرفض الاقتناع بالفكر المتماسك بالبرهان والدليل المنطقي والواقعي.

(٩) .كتب هٰذا المقال في ٤/٢/ ٢٠١٥م، ونشر في الفترة ذاتها مقتطفات في صفحتي في الفيس بوك.

حقيقة إنَّهُ أمر أكثر من مدهش. ولٰكنَّ الأكثر إدهاشاً من ذٰلكَ بما لا يقاس هو كيف يفكر المرء ذاته حَتَّىٰ يصل إلىٰ هٰذه النَّتائج؟ كيف ينظر إلىٰ نفسه وهو تحت هٰذا السَّقف المخلوع بهٰذه الطَّريقة الفاضحة؟

أحياناً نجد تبريراً في الفائدة والمكسب والعائدات التي يحققها المرء. ولٰكنَّ هٰذا التبرير ذاته غير كاف مطلقاً للوقوع في هٰذه الأخطاء الطاعنة في العقل. ومع ذٰلكَ سنقبل بأنَّ العائدات الربحية تقوم بتأثير في النفس والعقل وتجعل المرء يقتنع بما يتناسب مع ربحيته، وهٰذه قصة طويلة ومعقدة تحتاج وقفات مستقلة. إلا أنَّنا مع ذٰلكَ نقف مشدوهين أمام من لا يحققون مثل هٰذه العائدات الربحيَّة وهم يفكرون بالطَّريقة ذاتها من الغباء. بل أتجاوز ذٰلكَ اختصاراً للجدال والوقت وأقول: إنَّهُم من سويَّاتٍ عقليَّةٍ ليست غبيَّةً ولا عاديَّةً... أعني أنَّهُم لا يفتقرون إلىٰ الكفاءة العقليَّة، ومع ذٰلكَ لا يفترقون في هٰذا الجانب من الغباء عم الأغبياء فعلاً، عن من تدفعهم الحاجة أو الأنانية إلىٰ التَّورُّط في هٰذا التَّفكير الغبي.

أول طريق التَّفكير الصَّحيح هو فهم الحقيقة... ما لم نفهم الحقيقة لا يمكن أن نصل إلىٰ الحق. وأيُّ وصول إلىٰ الحق من دون فهم الحقيقة سيكون مصادفةً. يعني أنَّ الوصول إلىٰ الحقيقة من طريق الباطل ممكنٌ، ولٰكنَّهُ مصادفةٌ لا تجعل الباطل الذي أوصل إليها حقًّا أو حقيقةً أو صواباً.

المطلوب، وأرجو الانتباه هو فهم الحقيقة لا الاعتراف بها فقط، فالحقيقة لا تنتظر من يعترف بها. إن أنكرت البشريَّة كلُّها حقيقةً فلن يجعل هٰذا الإجماع الإنكاريُّ هٰذه الحقيقةَ باطلةً أو غير موجودةٍ، ستظلُّ حقيقةً.

حَتَّىٰ نفكر تفكيراً سليماً يجب أن نبدأ من فهم الحقيقة. فهم الحقيقة هو العتبة الأولى للوقوف علىٰ طريق التَّفكير الصَّحيح. ومن هٰذا الباب، كلُّ من لا

يفهم الحقيقة فهو كمن يغمس خارج الصَّحن، كما يقولون بالعاميَّة، وكلُّ من يغمِّس خارج الصَّحن فإنَّهُ يزيد الأمور تعقيداً وضبابيَّة، لأنَّهُ يضيف علىٰ السَّاحة معرفةً مشتبهةً في أقلِ تقديرٍ، يراها من يجهلها حقيقةً ويبني عليها ما قد يؤدِّي إلىٰ خرابٍ أو دمارٍ.

وكل من لا يعرف أنَّهُ يغمِّس عليه أن (ينضَبَّ) حَتَّىٰ لا يغمِّس خارج الصَّحن.

المشكلة ليست بسيطةً أبداً ولا سهلةً أبداً كما يتخيَّل الكثيرون. إنَّ الفهم الخاطئ بحدِّ ذاته مشكلةٌ غير يسيرةٍ علىٰ المرء فرداً إن لم يعمل بموجب الفهم الخاطئ بما ينعكس علىٰ غيره ولهٰذا محالٌ. محال أن لا ينعكس الفهم الخاطئ الآخرين حَتَّىٰ في أدنى حدود التَّنطع والتَّنظير، في أحسن الاحتمالات فإنَّ الفهم الخاطئ ينعكس خللاً وضرراً علىٰ الإنسان الفرد. فكيف إذا كان هٰذا المرء متنطِّعاً للتَّنظير والتَّحذير والتَّخطيط والتَّدبير كلاً أو بعضاً؟

ولأنَّ التَّفكير يقوم علىٰ الفهم فلا يمكن أن يكون التَّفكير صحيحاً ما لم يكن الفهم صحيحاً.

حَتَّىٰ لا يتنطع المعترضون أختصر الطَّريق كثيراً وأقول إنَّ المسألة أبسط بكثيرٍ من أن تحتاج إلىٰ جهد أو تعب أو متابعة حَتَّىٰ نفهم الحقيقة. بداية نحن لا نتحرك في ميدان الفيزياء الكموميَّة ولا في علم الأشعة ولا الخوارزميَّات ولا الرياضيات التَّخيُّليَّة ولا غير ذٰلكَ من حقول العلوم التي لها أهلها ولا يتجرَّأ أحد أصلاً علىٰ خوض غمارها ما لم يكن من أهلها. نتحدَّث عن الحياة العامَّة بكلِّ معطياتها وتقلباتها ومتغيراتها وثوابتها ما عدا القليل الغامض أو الاختصاصي... كلها تقوم علىٰ البداهة التي لا تحتاج إلا إلىٰ الانتباه والتَّفكير والتَّعقب

المنطقي... أعني أنَّنا غالباً لا نحتاج حَتَّىٰ إلىٰ الثَّقافة للإدراك والفهم، نحتاج فقط إلىٰ المنطق، إلىٰ الحكم والأمثال الشَّعبيَّة الأكثر انتشاراً واشتهاراً التي يعرفها الجميع.

هٰذا ليس تبسيطاً مبالغاً فيه للموضوع. هٰذه هي الحقيقة. هو تبسيط فعلاً ولٰكنَّه ليس مبالغاً فيه علىٰ الإطلاق.

أنا لا أدعوك إلىٰ التَّجرُّد من العواطف أو الانفعالات أو الأحاسيس، ولا أطلب منك أن تقف موقف المراقب العالم أو الباحث الاختباري، ولا غير ذٰلكَ مما يطلب من العلماء أو الباحثين لفهم حالةٍ علميَّة. أنا أدعوك إلىٰ تشغيل المنطق في حياتك والتَّفكير بمقتضيات المنطق... المنطق هو الذي لا يستطيع أحد الاعتراض عليه إلا جحوداً غبيًّا.

أنا أدعوك إلىٰ أن تفكر فيما تسمع بأمانة.

أنا أدعوك إلىٰ عدم التَّدخُّل فيما لا يعنيك.

أنا أدعوك إلىٰ عدم التَّفلسف فيما لا تفهم.

أنا أدعوك أن لا تنقل قولاً لا تتأكَّد من صحته.

الدعوات كثيرة وكثيرة ولٰكنَّهَا كلها تقوم علىٰ مبدأ واحد.

علىٰ بساطتها وسهولتها وضرورتها فإنَّهَا لن تجد صدى أبداً.

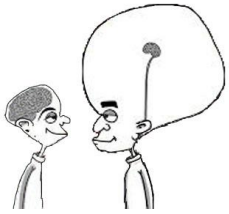

الفَصْلُ الثَّامِن

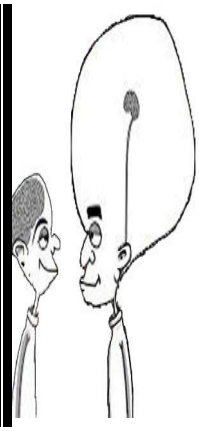

ثورة في القانون

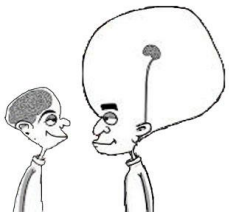

عالم الحرية عالمٌ معقَّدٌ أكثر مما نتخيَّل ورُبَّما سهل أسهل مما نتخيَّل. ورُبَّما لهٰذا السَّبب لم تستطع الحريَّة بعد أن تجد توافقاً بَيْنَ البشر علىٰ هويتها وطبيعتها. لا يمكن لأحد الادعاء بأنَّ هناك أيَّ توافقٍ علىٰ مفهوم الحريَّة(١٠).

أحياناً كثيرةً يدفعني الفضول للمقارنة بَيْنَ الحريَّة في عالم الحيوان والحريَّة في عالم الإنسان. ودائماً أجد الحريَّة في عالم الحيوان مضبوطةً ومنظَّمَةً أكثر من عالم الإنسان حَتَّىٰ أجدني مندفعاً للقول من دون تردُّدٍ: يستحقُّ الحيوان الحريَّة، يستحقُّ الحيوان الحريَّة، يستحقُّ الحيوان الحرية.

طبعاً، من البداهة بمكان أن يوجد علىٰ الفور من يعترض بالقول: أنت تقول حريَّة مضبوطة، حريَّة منظَّمة، فكيف يمكن أن تكون حريَّة ومضبوطة، حريَّة ومنظَّمة؟ أليس هٰذا انتهاكاً لمفهوم الحريَّة؟

هنا هي المشكلة الحقيقيَّة في فهم الحريَّة. هل الحريَّة مطلقةٌ. أم الحريَّة مقيَّدةٌ؟

إذا كانت مقيَّدةً فكيف تكون حريَّةً؟

(١٠) .كتب هٰذا المقال في ٦/٢/ ٢٠١٥م، ونشر في سراج برس بتاريخ ٢٧/ ٢/ ٢٠١٥م تحت عنوان: الحرية بَيْنَ عالمي الحيوان والإنسان.

وإذا كانت مطلقةً فما مدى مطلقيَّتها؟

إذا قبلت بالمطلقيَّة من دون حدٍّ أو مدى فأنت تتحرك في الفراغ منعدم الجاذبيَّة، وإذا قلت بمدى للمطلقيَّة عدت للقيد!!

دعكم من هٰذا الكلام بهٰذه الطَّريقة إنَّهُ سفسطة، بل سفسطةٌ عقيمةٌ، لا توصل إلىٰ نتيجةٍ ولن تؤدِّي إلاَّ إلىٰ إضاعة الوقت في ترف النِّقاش والسِّجال. نحن نريد أن نصل إلىٰ نتيجةٍ. من يعترض علىٰ أنَّ الحريَّة يجب أن تكون مقيَّدةً فهو غير جديرٍ بالكلام علىٰ الحريَّة. لا توجد حريَّةٌ مطلقةٌ لا نظريًّا ولا عمليًّا. بل لا يستطيع الإنسان أبداً أن يعيش حريَّةً مطلقةً. كلمة حريَّة مطلقة كلمة يجب أن يدرك من يستخدمها معناها قبل أن يستخدمها. ومن يتكلَّم بكلام أو عبارات لا يدرك معناها فكلامه غير مسؤولٍ، ولا يجوز أن يعتدَّ بكلامه أبداً.

لا أدري إن كان يتوهم الغربيون أنَّهُم يعيشون حريَةً مطلقةً، ولٰكنِّي متأكدٌ أنَّ كثيراً من الشَّرقيين يتوهَّمون أنَّ الشَّعب الغربيَّ يعيش حريَّةً مطلقةً. وهٰذا محض وهم لا أساس له من الصِّحَّة. الغربي يعيش حريَّة الحركة والعمل والانتخاب وأشياء أُخْرَىٰ غير قليلةٍ، ولٰكنَّهُ محدود في كلِّ شيءٍ بقانون يقول له قف، هٰذا ليس من حقِّك. أيسرها أنَّهُ في حين أنَّهُ يحقُّ له أن ينتحب من يشاء عندما يدعى إلىٰ الانتخاب فإنَّهُ لا يحقُّ له التَّرشح حيث شاء إلا ضمن شروط، هٰذه الشُّروط إذن قيدٌ علىٰ الحريَّة.

هٰذا مثال قريبٌ بسيطٌ إلىٰ الذِّهن سريعٌ، ولٰكنَّ الحدود والقيود علىٰ الحريَّة كثيرةٌ جدًّا في كلِّ مجالٍ ومكانٍ وميدانٍ. هٰذه القيود علىٰ الحريَّة ليست انتقاصاً من الحريَّة ولا انتقاصاً من قيمة الإنسان بالضَّرورة.

هٰذه الضَّوابط هي الضَّرورة، مثلما الحريَّة ضرورةٌ فإنَّ الضَّوابط علىٰ الحريَّة ضرورةٌ أيضاً.

الإنسان بطبعه طامعٌ طامحٌ جامعٌ حرونٌ متمرِّدٌ يستطيع أن يمارس كلَّ ذٰلكَ معاً بطاقاته القصوى في أيِّ فرصةٍ تتاح له. ومن هنا تأتي ضرورة الضَّوابط كي لا يعتدي علىٰ حقوق الآخرين وكي لا يتعدى حدوده.

لنعد إلىٰ فضولنا في المقارنة مع عالم الحيوان. في تتبعنا العلميِّ لعالم الحيوان وجدنا بعض مظاهر الاستعراض وحب الظُّهور حسب مستوى فهمنا لعالم الحيوان بل إسقاطنا دلالاتنا عليه، وبمعاييرنا الإنسانيَّة... ولذٰلك لا نستطيع الجزم فيما إذا كانت كذٰلكَ فعلاً أم أنَّ لها في عالم الحيوان دلالاتٍ أُخْرَىٰ. ومع ذٰلكَ في إطار هٰذه الملاحظة أو التتبع وجدنا أيضاً هٰذه المظاهر محدودة في أوقات أو معطيات ظرفيَّةٍ محدَّدة تقترن غالباً في أوقات السِّفاد، تنتهي بعدها علىٰ الفور ولا يبقى لها أي أثر، وتعود إلىٰ حياتها الطبيعية.

ولكنَّنا وجدنا في الإنسان أنَّ حبَّ الاستعراض والظُّهور والزَّعامة عقدة متأصَّلة في النَّفس البشريَّة بالعام ورُبَّما بالمطلق. رُبَّما لأنَّهُ في يعيش ديمومة نشاط جنسيٍّ غير منقطةٍ ولا موسميَّةٍ مثل عالم الحيوان... تفسير فرويدي لا نهمله ولا نعوِّل عليه، وإنَّمَا من باب التَّداعي الدعابي.

تظلُّ هٰذه العقدة عند الإنسان تحت السَّيطرة حَتَّىٰ ينكشف الغطاء عن الإنسان فإنَّهُ يريك من عجائبه ما تشيب لهوله الولدان الرضيعة. نحن لا نكتشف حقيقةً خفيَّةً علىٰ الحكماء الفلاسفة والعلماء. لنرجع إلىٰ أدبيات الشُّعوب عبر آلاف السِّنين الماضية؛ حكمها، أمثالها، قصصها، أشعارها... سنجدها بارزة في كلِّ عصرٍ وفي كلِّ مجتمعٍ. ومن حكيم ما قالته العرب قول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ارتفاع القيد، ارتفاع الغطاء هو انتفاء سلطةٍ فوقه، غياب السُّلطة التي تحكمه. القانون موجودٌ ويظلُّ موجوداً. القانون ليس أحكاماً مكتوبةً علىٰ ورقٍ أو جدرانٍ أو غيرها. القانون موجود في العقل، والكل يدرك القانون. إيمانويل كانت قال يوماً: «أمران يملآن عقلي غبطةً: السَّماء المرصَّعة بالنُّجوم فوق رأسي، والقانون الأخلاقيُّ في أعماقي». نحن لسنا بحاجةٍ إلىٰ أيِّ جهدٍ لندرك القوانين العامَّة المرتبطة بالحرية أو لنقل التي تحدِّد مدى الحريَّة.

إذن ليست المشكلة في وجود القانون وإنما في وجود سلطة تطبق القانون. وإذا كان فلاسفة التنوير اختلفوا في أيِّهما الأولى القانون الجيِّدُ أم تطبيق القانون بالتَّساوي فإنِّي أميل إلىٰ تطبيق القانون بالتَّساوي ولو كان جائراً، لأنَّ الظُّلم في السَّوية عدلٌ في الرَّعيَّة كما تقول العرب. لٰهذا لا يعني أنَّني مع القانون الجائر. ولٰكنَّني أعني أنَّني مع تطبيق القانون بالسَّويَّة علىٰ كلِّ الرَّعيَّة.

إذن الحريَّة في العالم الغربيِّ، ولا يعنيني مدى حدودها، محدودة بقوانين، وسلطة تطبق القوانين بصرامة، هي ليست صرامة مطلقةً ولٰكنَّهَا عامَّة إلىٰ أبعد الحدود.

كثيرون يظنُّون علىٰ سبيل المثال أنَّ الرَّئيس في العالم الغربي لا يترشح لأكثر من دورة أو دورتين عفَّةً وطهارةً ورقيًّا حضاريًّا. لٰهذا وهمٌ لا أساس له من الصِّحَّة. لا تظنوا أنَّ الرَّئيس في العالم الغربيِّ لا يتمسَّك بالكرسيِّ... القانون الصَّارم وحده هو الذي يحول بَيْنَه وبَيْنَ التشَّبث بالكرسي بأظافره ولسانه

وأسنانه. ولولا سلطة تطبيق القانون قاهرة لوجدنا الرَّئيس يظلُّ يترشَّح حَتَّىٰ (يسقط) في الانتخابات أو التابوت.

لا يوجد رئيسٌ في العالم إلا ويظلُّ يترشَّح للرِّئاسة طالما أنَّ القانون يسمح له بذلكَ. توجد استثناءات بالتأكيد، ولٰكنَّ الاستثناء لا يقاس به ولا إليه ولا عليه. بل يقولون الاستثناء يؤكِّد القاعدة.

ترى في عالم الحيوان كيف يكون الأمر؟

في تتبُّع العلماء لعالم الحيوان نجد الأمر ذاته تقريباً، ولٰكن وجدوا أيضاً أنَّ في عالم الحيوان قوانين صارمةً أكثر من صرامة قوانين البشر هي التي تحيل الزَّعيم إلىٰ التَّقاعد أو تقتله لتضع حدًّا لوجوده غير المجدي في قيادة جماعته الحيوانيَّة.

في عالم الحيوان يظلُّ القائد قائداً طالما أنَّهُ لا يوجد من هو أفضل منه لقيادة المجموعة الحيوانيَّة. فإذا ظهر من هو أفضل قرَّرت المجموعة الحيوانيَّة التَّخلُّص من القائد منتهي الصَّلاحيَّة.

في عودٍ إلىٰ عالم البشر، ما لم يكن هناك قوانين مطبَّقة بصرامةٍ، نجد أنَّ القائد الذي تنتهي صلاحيَّته يقوم هو ونظامه بإنهاء صلاحية الشَّعب ليكون من طبيعة قائده، غير غريب عنه مستواه في القدرات والكفاءات المهترئة المتهالكة. وإذا نادى الشَّعب بإسقاط القائد نادى القائد بإسقاط الشَّعب.

فقط الدُّول التي تحكمها قوانين ودساتير صارمةٌ لا تصل إلىٰ هٰذه النُّقطة، وإن كان يمكن أن تستخدم الطَّريقة ذاتها في أشياء أُخْرَىٰ تحت المزاعم ذاتها؛ أمن الوطن، أمن الأمة، المصالح العليا، وبعضها أمورٌ قد تقتضيها الضَّرورة وقد تقتضيها سياسة الدَّولة، وقد تكون غير ذٰلكَ.

إذن ثورتنا من أجل الحرية يجب أن تكون من أجل سيادة القانون. سيادة القانون هي الضامن للحرية والعدالة. لا قيمة للحرية من دون عدالة. وحَتَّىٰ لا يتنطع من يحتج علىٰ العكس أقول بثقة مسؤولة: لا يمكن أن توجد عدالة من دون حرية، لأنُّه لا يمكن منطقيًّا أن تكون عدالة ظالمة. تحقق العدالة يعني إحقاق الحقول وما لم تحق الحقوق فليست عدالة.

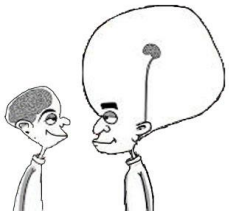

الفَصْلُ التَّاسع

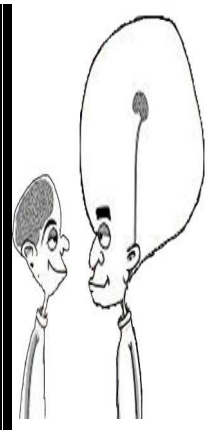

ثورة في التربية

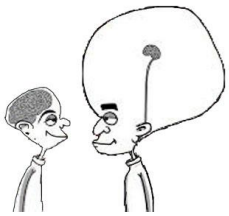

علىٰ نحو تقليديٍّ وتظهيريٍّ لا علىٰ تقليدٍ حضاريٍّ تقوم البلديات في مختلف بقاع العلم المتخلف كل بداية ربيع بزراعة الأشجار والورد في الحدائق(١١).

لا تكاد تمضي أيام علىٰ زراعة الأشجار والورد في الأماكن العامة حَتَّىٰ تجد الأطفال يضيفون إلىٰ لهوهم المعتاد لهواً جديداً هو تنتيف الأشجار التي زرعتها البلدية وكأن بينهم وبينها ثأر، أو بَيْنَهم وبَيْنَهم البلدية ثأر.

هي لهم في حقيقة الأمر بكل ما تحمله كلمة لهم من معنى؛ هي لهم ليستمتعوا بمنظرها، هي لهم لتقدم لهم الأوكسجين الذي يغسل تلوث المدينة، هي له اقتطعت أثمانها من مصروفهم، مما تدخره الدولة (نظريًّا) لهم للمستقبل. فلماذا يفعلون ذٰلكَ؟

أنى توجهت في مختلف أسقاع العالم المتخلَّف، الثالث، وجدت الأطفال عندما ينتهون من اللعب مساء أو حَتَّىٰ نهاراً، أو عندما يملُّون من اللعب، أو عندما لا يوجد ما يلعبون به يستهدفون مصابيح الشَّوارع بالحجارة ويتسابقون في اصطيدها وكسرها.

(١١) .كتب هٰذا المقال ٢٠١٥/١/٢٧م ونشر في علىٰ شكل مقتطفات في الفترة ذاتها علىٰ صفحاتي في مواقع التواصل الاجتماعي.

هي لهم لتنير دربهم، هي لهم من مالهم ومصروفهم. فلماذا يفعلون ذٰلكَ؟

ولا أعد هٰذه المظاهر فهي أكثر من أن تحصى، أينما توجهت في أسقاع العالم الثالث وجدت من أمثال هٰذه المظاهر في كلِّ شيءٍ ما يؤلم ويكرب؛ من تخريب في الطُّرقات، في الجدران، في أسوار الحدائق، المدارس... لا تتابع العدَّ فالعدُّ مضيعةٌ للجهد.

لماذا يفعلون ذٰلكَ؟

ألا يدركون أنَّهَا لهم ومن مالهم ومصروفهم؟

قطعاً لا يدركون ذٰلكَ، وليست هٰذه هي المشكلة، وليس هٰذا هو السبب. عجباً، وهل يدرك الأطفال في العالم الغربيِّ أو العالم المتطوِّر هٰذه الحقيقة حَتَّىٰ لا نراهم يعبثون مثل هٰذا العبث التَّخريبيَّ؟

لا يختلف الأطفال في الوعي بَيْنَ الشَّرق والغرب في مثل هٰذه السِّن في مثل هٰذه الأشياء. الذي يختلف هو التَّربية والقوانين الاجتماعيَّة والأسريَّة التي تمنع الأطفال في الغرب من مثل هٰذا العبث، وتطلقها في الشَّرق لتعيث هٰذا الفساد وتشب عليه.

هنا الخطير في الموضوع، ينشأ الطِّفل علىٰ هٰذه العقليَّة ويشب عليها فلا يختلف الشَّاب والعجوز عن الطِّفل في هٰذه الممارسة سوى في النوع:

الشَّاب والرَّجل والعجوز في بلاد الشَّرق المتخلِّف لا يقذف مصابيح الشَّارع بالحجارة ولٰكنَّهُ بكلِّ بساطةٍ يلقي الأوساخ في الشَّارع من دون أي إحساس بالإثم أو الذَّنب أو حَتَّىٰ الخطأ.

الشَّاب والرَّجل والعجوز في بلاد الشَّرق المتخلِّف لا يقلع أشجار البلدية ولا الورد في الأماكن العامة ولَكنَّهُ لا يحرص عليها أبداً إن احتاجت أدنى حرصٍ، ولا يدافع عنها إذا رأى مثلاً طفلاً يعتدي عليها.

هٰذا الطفل الذي يجعل الاعتداء علىٰ الحق العام، علىٰ حقوق الآخرين، هواية له ومادة لعب وعبث وتخريب لا يمكن أن يكون مواطناً صالحاً في المستقبل، عندما يصير شاباً ورجلاً وحَتَّىٰ عجوزاً.

أنا أتحدَّث علىٰ العقلية العامة لا الفردية، أعني أمرين بذٰلكَ:

الأول: أنَّ كل من نشأ هٰذه النشأة ستكون هٰذه سيرته ومسيره في حياته مع مختلف مقدَّرات الدَّولة وحقوق الآخرين، ولن أتجاوز إلىٰ أنَّهُ سيكون جريئاً في الاعتداء علىٰ حقوق الآخرين.

الثاني: العقليَّة الجمعيَّة هي التي تحكم الأفراد وليست العقليَّة الفرديَّة هي التي تحكم المجتمعات، وبهٰذا المعنى قلت منذ أكثر من ثلاثين سنة: العالم المتخلِّف متخلِّفٌ بالجملة متطوِّرٌ بالمفرد. كل فرد علىٰ نحوٍ شخصيٍّ وفرديٍّ بطلٌ في التَّنظير في الأخلاق والحضارة والنَّظافة... وعندما يتصرَّف يتصرَّف بما تمليه عليه أو تحكمه به العقليَّة الجمعيَّة، فأحدهم مثلاً ينظِّر ساعات في النَّظافة وبعد تنظيره بدقائق ينفثُ ويلقي بالمنديل علىٰ قارعة الطَّريق!

إذن نحن بحاجة إلىٰ ثورة في التَّربية. التَّربية تحتاج إلىٰ فهم، وتمثُّل هٰذا الفهم بالإيمان، فتتحوَّل إلىٰ سلوكٍ. التَّربية سلوكٌ قبل أن تكون أوامر. التَّربية عن طريق الأوامر ممكنة ولَكنَّهَا بلا أي قيمة إذا تناقض سلوك الآمر معها أو متباعداً عنها. بل إن الأوامر الأخلاقيَّة والتَّربويَّة عامَّةً تكون خطراً في حال التَّناقض بَيْنَ الأمر والفعل.

أمَّا التَّربية بالسُّلوك فهي الأكثر قوَّةً ورسوخاً وتأثيراً في النَّفس. وهنا لا بُدَّ من الأوامر التَّربويَّة والأخلاقيَّة في عمليَّة التَّربية لأنَّ الطِّفل لا يعلم: يتصرَّف ويخطئ ويصيب، فإذا أصاب وجب التَّعزيز أو هو مستحسن، وإذا أخطأ وجب الأمر بالعكس والتَّنبيه.

ملهم كان طفلاً صغيراً، تعوَّد بالسُّلوك والأمر أن لا يلقي وسخةً إلا في سلَّة المهملات مهما صغرت أو كبرت. كان في بداية مشيه... ذهبت به في مشوار وكان عمره نحو ثلاث سنوات أو رُبَّما أقل قليلاً، وكنت أتركه يمشي وحده ولا أمسك بيده إلا عند ضرورةٍ. وفي الطَّريق أشعلت سيجارة وقلَّما أدخِّن وأنا في الطَّريق، ولا أعرف حقًّا ما الذي دفعني إلىٰ ذٰلكَ، وعندما فرغت من السيجارة أدركت ورطتي مع ملهم فلما عرفت للحظة ماذا أفعل، ولٰكنِّي قررت أن أرميها في الشارع لأعرف ردَّة فعله، ورميتها، وتابعت مسيري من دون توقف وكأنَّ شيئاً لم يكن... ولٰكنَّ ملهم تسمَّر مكانه ولم يتحرك، وراح ينظر إليَّ باستغراب. فقلت له: تعال، ما بك؟ قال: احمل السيجارة. قلت لماذا؟ قال: ضعها في الحاوية. قلت: لا يوجد حاوية هنا أبداً. قال: بلى، تلك حاوية. وأشار إلىٰ علبة الهاتف التي لم يميز بينها وبين الحاوية.

حملت السِّيجارة ورحت أبحث عن سلة مهملات ولٰكن عبثاً.

هنا المشكلة الثَّانية بل المشكلة من الوجه المقابل. لماذا يفعل المواطن ما يفعل من إهمال وعدم مبالاة بالأموال العامة والحق العام؟

عدم وجود سلة المهملات مسؤولية الدولة، ماذذا تفعل الدولة لتعويد المواطن علىٰ النظافة؟

الحقيقة حَتَّىٰ لو وزعت الدولة سلات المهملات علىٰ كلِّ الشَّوارع فإنَّ المشكلة لن تنهي هنا. المشكلة ليست مشكلة مظاهر تمارسها الدُّول. إن ما يقوم به المواطن في حقيقة الأمر هو رد فعل علىٰ السلطة الحاكمة أكثر مما هو عقلٌ متخلِّفٌ. لا يحتاج المواطن الشَّرقي أكثر من دقائق حَتَّىٰ يتأقلم مع الحضارة في الغرب، وبعد عشرات السِّنين يعود إلىٰ الوطن فلا يحتاج أكثر من أيامٍ ليعود سيرته الأولى.

الثَّورة في التَّربية ضرورة مهما كانت الأمور والأحوال والسُّلطة السِّياسية. نحن لا ننكر ولا يمكن أن ننكر أن رداءة السُّلوك عند المواطن تكون أكثر ما تكون ردَّة فعل قسريَّة من المواطن علىٰ فساد السُّلطة، علىٰ سوء السُّلطة، علىٰ ديكتاتوريَّة السُّلطة، علىٰ تقصير السَّلطة... لا يستطيع المواطن أن يجابه السُّلطة في الميدان الحقيقي الذي يجب أن يواجهها فيه فيواجهها بعدم المبالاة بأموال الدولة التي هي أمواله في حقيقة الأمر...

لا يدرك أنَّها أمواله ولا يستطيع أن يدرك أنَّها أمواله لأنَّ السلطة تمارس عليه القهر والاستلاب الذي يجعل المفاهيم تائهة غامضة في عقله...

المواطن ينتقم من السُّلطة بطريقة لا تستطيع السُّلطة أن تعاقبه عليها، ولا تستطيع القوانين أن تحاكمه عليها.

المشكلة إذن أعقد من الصُّورة البسيطة التي تبدو عليها. التَّربية الأسريَّة هي الأساس، نعم هي الأساس. ولٰكن ماذا تستطيع الأسرة أن تفعل أمام سيل العقليَّة الاجتماعيَّة أو الجمعيَّة التي تفرضها السُّلطة علىٰ المجتمع؟

هٰذه المعضلة لا حلَّ لها في حقيقة الأمر. لا تستطيع الأسرة أن تبني مواطناً صالحاً في وطنٍ تحكمه سلطةٌ معاديةٌ للوطن أو فاسدةٌ. تستطيع الأسرة

أن تبني ابناً صالحاً وهٰذا أضعف الإيمان، وهٰذا ما لا يجوز التَّنازل عنه. ولٰكن لا يمكن للأسرة أبداً أن تبني المواطن الصَّالح الحريص علىٰ الوطن إلا في ظلِّ سلطةٍ تحب الوطن بصدقٍ لا بدجل فالمواطن البسيط يدرك دجل السُّلطة وكذبها ويتجاوزه.

نحن بحاجة إلىٰ ثورة في التَّربية، هٰذا حكم يصح مهما كان حال السُّلطة. بل إنَّ بعض المفكرين والفلاسفة يدعون إلىٰ ثورة دائمة في التربية. ثورةٌ دائمةٌ في التَّربية موضوعٌ جديرٌ بأن يبقى أمام العقول دائماً.

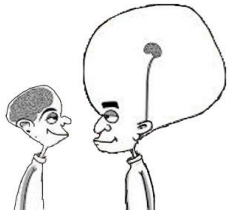

الفصل العاشر

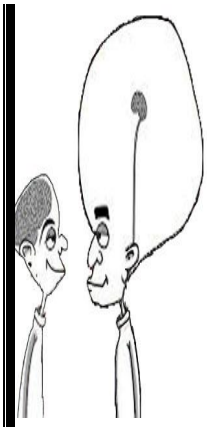

متى يشن القادة الحروب على شعوبهم

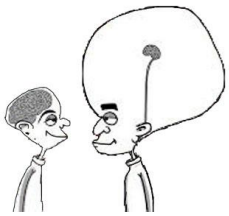

مسألة الحروب مسألةٌ مربكةٌ أبعد حدود الإرباك. لن نعود إلىٰ تاريخ الحروب وتفاصيلها وأسرارها وطرائفها ففيها ما لا يعدُّ ولا يحصى. حسبنا أن نبدأ بالحكمة التي تجد توافقاً إجماعيًّا علىٰ روعتها في التَّعبير عن معضلة الحرب الأساسيَّة، والتي تقول: «تستطيع أن تبدأ الحرب متىٰ شئت، ولٰكن لا تستطيع أن تنهيها متىٰ شئت»(١٢).

حكمةٌ قصيرةٌ بليغةٌ بلاغةً مدهشةً لا في التَّركيب ولا الأسلوب والزُّخرف اللفظي وإنَّمَا في بساطتها وحذاقة فكرتها ودقَّة تعبيرها. نعم بإمكان أيِّ واحدٍ أن يبدأ الحرب أيَّ حربٍ متىٰ شاء ورُبَّما مع من شاء، ولٰكن لن يعود بإمكانه أبداً أن ينهيها متىٰ شاء، بل لن يكون من السَّهل أبداً توقع كيف ستنتهي ولا لمصلحة من، مهما بلغ المعتدي، أو من باشر الحرب من قوَّة.

الولايات المتَّحدة شنَّت حربها علىٰ العراق وهي علىٰ يقين من النَّصر. انتصرت علىٰ النِّظام العراقي، نعم، ولٰكنَّهَا انهزمت في المحصلة شرَّ هزيمةٍ، وجرَّت

(١٢) .كتب هٰذا المقال في ٢٠/٥/ ٢٠١٥م، ونشر في سراج برس بتاريخ ٢٥/ ٥/ ٢٠١٥م.

علىٰ نفسها ويلات ما زالت تعاني منها، ولا تدري كيف تداريها أو تهرب منها، إلا بالهروب إلىٰ الأمام. كم هو الفرق هائل بَيْنَ قوة الولايات المتحدة وقوَّة العراق، ومع ذَلكَ انهزمت إمبراطورة العالم وما زالت تعاني مما جنته علىٰ نفسها من هٰذه الحرب التي انتصرت فيها انتصاراً ساحقاً سريعاً لم يكن يتوقَّعه أحدٌ.

هل قدَّر القائد الأمريكي جورج بوش الصَّغير حينها هٰذه النَّتائج؟

لم يخطر في بال أمريكا كلها إلا أنَّ حربها في العراق ستكون نزهةً ومتعةً ولهواً.

وهنا يبرز السُّؤال: لو قدَّر بوش الصَّغير أو القيادة الأمريكيَّة ما ستعكسه هٰذه الحرب علىٰ الولايات المتحدة هل كان أقدم عليها هل كانت القيادات الأمريكيَّة المختلفة من كونجرس إلىٰ شيوخ إلىٰ بنتاجون لتسمح لبوش الابن أن يشنَّ حربه علىٰ العراق لو أنَّها قدَّرت هٰذه النَّتائج؟

هٰذه هي الفكرة التي أود طرحها وتباينها. ليست أمريكا وحربها علىٰ العراق، وإنَّما فكرة كيف يشن القادة الحروب، وكيف يحسبون حساباتهم، ومتى يُقْدِمُون علىٰ الحرب.

الحقيقة التي أودُّ أن أوضحها هنا قبل الشُّروع في الإجابة التي ستكون مختصرةً هي أنَّ هٰذا الموضوع وهٰذه التَّساؤلات موضوع علم كبير واسع وليس محض مقالة طالت أو قصرت. ما أريد تبيانه فكرةً واحدةً، هي تقدير الخسائر.

في الغرب النِّظام مُؤسَّسة حكم، في الشَّرق النِّظام هو الرَّئيس أو الملك ولا توجد معه قوَّةٌ ولا مُؤسَّسةٌ تملك أدنى صلاحيَّة في قرار الدَّولة إلا بإذن الحاكم ورضاه وتحت سقف فلسفته، كلُّ سلاطين الشَّرق فلاسفةٌ، يعترفون أو نكتشف أن أكثر من سبعين بالمئة من قراراتهم خاطئةٌ، ومدمِّرةٌ أحياناً.

المهم، النِّظام الذي يشنُّ حرباً علىٰ أعداء الوطن لا يشنُّها إلا بعد دراسةٍ مستفيضةٍ حَتَّىٰ وإن بدت سريعةً أو ردَّ فعلٍ سريعٍ. مهما بلغت سرعة ردِّ الفعل فإنَّ الحرب لا تبدأ إلا بعد دراسةٍ مستفيضةٍ وافيةٍ.

لا يعنيني هنا توازن القوىٰ، والأسلحة، والإمداد... وغير ذَلكَ كثير من متطلَّبات المعركة وحيثياتها، يعنيني أنَّ مما يقدِّره القائد عند التَّفكير في شنِّ الحرب هو الخسائر البشريَّة التي سيمنى بها في حربه... إِنَّهُ يفكِّر في عدد الضَّحايا الذين سيفقدهم في هٰذه الحرب. لا يمكن أن تكون حرب من دون قتلى، ولا قائد لا يفكر في عدد القتلى الذين سيفقدهم، ولا قائد لا يفكر في الحرب لأنَّ عدداً من جنده سيقتلون.

ولٰكن، كلُّ القادة تقريباً، إلا المجانين العبثيين، يتراجعون عن قرار المعركة إذا قدَّروا أنَّهُم سيفقدون عدداً كبيراً من الجنود. يوقفون المعركة لسببين أو ثلاثة علىٰ الأقل:

الأول: زيادة عدد القتلى بَيْنَ صفوف جنده ستؤدِّي إلىٰ انهيارٍ نفسيٍّ في جيشه الأمر الذي يعرضه للهزيمة، ويجعل هزيمته أقرب من انتصاره... وهٰذه مسألةٌ تاريخيَّةٌ ونفسيَّةٌ شهدنا الكثير منها في الحروب عبر التَّاريخ.

الثاني: زيادة عدد القتلى بَيْنَ جنده في أيِّ معركة ستثير نقمة الشَّعب عليه ورُبَّما تؤدِّي إلىٰ ردود أفعال غير متوقَّعة من الشَّعب أو من قيادات الجيش ذاته.

الثالث: سبب أخلاقيٌّ يجب أن يتمتَّع به القائد، وهم ملزمون بالتَّقيُّد به، فزيادةُ عدد القتلى بأكثر من النَّتائج التي سيحصلها الجيش تعدُّ هزيمةً في نظر التَّاريخ.

أنا هنا لا أتحدث عن الدِّفاع عن النَّفس الذي تُلزم به الدُّول أو الشُّعوب لدى شنِّ عدوانٍ عليها. كلُّ شعبٍ له أخلاقه وقيمه وتفضيلاته التي تحكم طريقة دفاعه عن نفسه ووطنه ومدىٰ استعداده النَّفسيِّ وقدراته ومعنوياته للتَّضحية.

علىٰ مدار التَّاريخ كانت القادة يفكِّرون في الحروب من باب النَّتائج والتَّضحيات التي ستدفع من أجلها فإن كانت التَّضحيات أكبر من النَّتائج عدل القائد عن الحرب. ولذٰلك وجدنا في بطون التَّاريخ عدداً من القادة الذين تراجعوا عن معارك كانت ستودي بضحايا أكثر من النَّتائج التي سيحصلون عليها، ووجدنا انتصارات بضحايا أكبر من الانتصارات كانت وصمة سيئة في تاريخ القائد.

ولٰكن، القادة الذين يشنُّون الحروب علىٰ شعوبهم هم وحدهم الذين لا يفكِّرون في عدد الضَّحايا، ولا كميَّات التَّضحيات والخسائر ولا أنواعها. فقط في هٰذه الحالة تصبح التَّضحيات كلُّها لا شيء أمام انتصار القائد علىٰ شعبه إذا أراد القائد أن يشنَّ الحرب علىٰ شعبه.

في مثل هٰذه الحالة لا يفكِّر القائد بعدد القتلى من أنصاره ومواليه وجنده ولا يقيم لأحدٍ منهم وزناً، ولا يهتم حَتَّىٰ لو فقد كلَّ جنده وأنصاره ومواليه... فهل يمكن أن يفكِّر في شعبه الذي يشنُّ حربه ضدَّه؟

بشار الأسد أنموذج لهذه الحالة. كثيرون يقولون إنَّ بشار الأسد رمى بالعلويين إلىٰ التَّهلكة، وكأنَّ بشار الأسد يبالي بالعلويين أو يسأل بهم أو عنهم. هم عنده لا شيء، هم عنده وقود معركةٍ، إن ضحَّى بهم جميعاً وانتصر بالمعركة سيصنع موالين غيرهم. هٰكذا يفكِّر القادة الذين يشنُّون حروبهم علىٰ شعوبهم.

كلُّ من يحسب أنَّ العلويين يساوون عند الأسد قشرة بصلةٍ فهو واهمٌ. دلاله كله لهم، وتفويضهم، والسُّكوت علىٰ كلِّ ما يفعلون ليس إلا لجرِّهم لمزيدٍ من التَّضحية والموت علىٰ أمل أن ينتصر...

من باب أولى أنَّ الشَّعب كلِّه لا يساوي شيئاً عنده، ولا مانع عنده أن يبيد الشَّعب إذا استطاع ليبقى هو قائداً ولو علو رماد الوطن وأبناء الوطن.

بشار الأسد ليس وحيداً في هٰذا السُّلوك والتَّفكير علىٰ الإطلاق. ما من قائد يتملك إرادة أن يشنَّ الحرب علىٰ شعبه إلا ويفكِّر بالطريقة ذاتها، بحذافيرها حذفوراً حذفوراً. لم يكن القذَّافي أحسن حالاً مع الشَّعب أنصاراً وثواراً من بشار الأسد، القذَّافي توافق أن تدخَّل المجتمع الدولي لوضع حدٍّ لدمويَّته، ولولا ذٰلكَ لمسح ليبيا والليبيين عن وجه الأرض طالما استطاع إلىٰ ذٰلكَ سبيلاً.

في العراق ما يفعله العبادي وقبله المالكي لا يختلف أبداً عما فعله ويفعله بشار الأسد وقبله القذافي. ولو أتيحت الظروف لعلي عبد الله صالح لفعله وهو رئيس، وما لم يستطع فعله وهو رئيس فعله وهو خارج السُّلطة. وكذٰلكَ شأن السِّيسي المقيد بقيود وراءها أسرار. وقبل ذٰلكَ قادة الجزائر وخاتمتهم عبد العزيز بوتلفيقة الذين دمروا الجزئرا وقتلوا مئات الألوف من الجيش والأمن والشَّعب من أجل أن لا تنتصر إرادة الشَّعب... وهزموها أخيراً. ولا تتخيَّلوا أنَّ أيَّ قائدٍ عربيٍّ سيكون أقلَّ من ذٰلكَ إذا ثار شعبه عليه. هٰذا ليس إحباطاً للشَّعب، هٰذا تعريف بطبيعة المعتوهين الذين يحكمونهم. وحَتَّىٰ لا يتوقعوا أنَّ الثَّورات نزهات، وحَتَّىٰ لا يتوقَّعوا أن العيش بكرامة يمكن أن يكون من دون تضحيات تعادلها.

ولا تحسبوا أنَّ قادة العرب وحدهم بهٰذه العقليَّة والدَّمويَّة. أيُّ قائدٍ في أيِّ بلدٍ في العالم يقرِّر أن يحارب شعبه يكون بهٰذا الخلق الدَّموي. تذكَّروا مذبحة

الميدان السَّماوي في الصِّين عام ١٩٨٩م عندما سارت الدبابات علىٰ الطلاب المحتجين. تذكروا ستالين ومجازره ضدَّ شعبه، تذكروا ميلسوڤيتش وماذا فعل في البوسنة والهرسك. تذكروا الطَّاغية الإسباني فرانشيسكو فرانكو... وغيرهم قليلٌ لا كثيرٌ.

ما أقلَّ القادة الذين شنوا الحروب علىٰ شعوبهم مثل هؤلاء. الطُّغاة كثر، السَّلاطين كلُّهم طغاةً بمعنى من المعاني. ولٰكنَّ الذين شنَّوا حروباً علىٰ شعوبهم قليلون ورُبَّما قليلون جدًّا جدًّا. رُبَّما مرَّ علىٰ تاريخ البشر ملايين الملوك والأمراء والرؤساء... ولٰكنَّ الذي شنُّوا حروباً علىٰ شعوبهم معدودون علىٰ الأصابع. المعتوه فقط هو الذي يقتل شعبه كما قال بشار الأسد. ولأنَّ وصول المجانين إلىٰ السُّلطة شبه ممتنعٍ، فإنَّ من بَيْنَ ملايين السَّلاطين فقط عشرات وصلوا إلىٰ السُّلطة، ومن بَيْنَ هؤلاء العشرات نصفهم فقط شن الحرب علىٰ شعبه لأن الشَّعب ثار عليه أو رفضه. وثَمَّة مثلهم من المجانين الذي لم يشنُّوا الحروب علىٰ شعوبهم لأنَّهُم لم يتعرَّضوا للثَّورات. وإلىٰ جانبهم مئات السَّلاطين تسلَّطوا علىٰ شعوبهم استبدوا بها مختلف درجات وأنواع الاستبداد، وارتكبوا مجازر بحقِّ شعوبهم حَتَّىٰ استتبت لهم السُّلطة... السَّلاطين كلهم إذا لم يكونوا محكومين بقوانين صارمة فهم مستعدُّون للاستبداد بالشُّعوب.

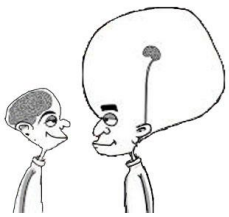

الفصل الحادي عشر

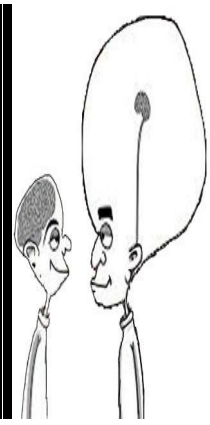

أزمة الثورات

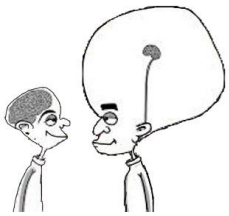

مـن هـم أعـداء الثَّـورات عنـوانٌ
عـريضٌ لمضـمونٍ طويـلٍ عـريضٍ يحتـاج
الكثير من البحث والتَّفصيل(١٣).

مــن البداهــة بمكــان أنَّ الأنظمــة الحاكمــة بــالمطلق أعــداء للثَّــورات سـواء أكانـت مستبدَّةً أم غـير مستبدَّةٍ. والأنظمـة المستبدَّة هـي الـتي تقـف أمــام الثَّــورات وقفــة شمشــمون: علــيَّ وعلــىٰ أعــدائي، أنــا أو لا أحــد... وتواجـه الثَّـورات حَـتَّىٰ الرَّمـق الأخـير منهـا ومـن أنصـارها ومـن الشَّـعب الـذي يثور عليها.

من البداهة بمكان أيضاً أنَّ حلفاء الأنظمة الخارجيين يقفون ضد الثَّورات علىٰ حلفائهم، وكنا هنا أمام تحفُّظٍ يؤكِّده ما سبق من تاريخ الثَّورات وهو أنَّ الحلفاء يقفون مع حلفائهم فتراتٍ محدودةً وضيِّقةً سرعان ما ينسحبون عندما تتصاعد الأمور وتتعقد وربَّما من أول تصاعدٍ وتعقيد ينسحب الحلفاء، وربَّما يطول قليلاً بعد التَّصعيد، ولٰكنَّهُم غالباً ما ينسحبون في مرحلة غير بعيدةٍ من التَّصاعد والتَّعقيد حفاظاً علىٰ مصالحهم.

مـن البداهـة بمكـان أيضـاً أن الفاسـدين والمنتفعـين مـن الأنظمـة الحاكمـة يقفون غالباً ضدَّ الثَّورات حفاظاً علىٰ مصالحهم وانتفاعاتهم ومكاسبهم. ولٰكنَّ

(١٣) .كتب هٰذا المقال في ١/٩/ ٢٠١٥م، ونشر في ٧/ ٩/ ٢٠١٥م علىٰ موقع الهيئة السُّورية للإعلام، تحت عنوان: لماذا تقف الشعود ضد الثورات؟.

التَّاريخ يسجِّل أنَّ هٰؤلاء الفاسدين يقفون في مرحلة من المراحل مع الثَّورة لأسباب كثيرة غير قليلة تتراوح ما بَيْنَ الرغبة في النجاة والأمل في الحفاظ علىٰ مصالحهم والطَّمع في ركوب الثَّورة...

لا ينتهي أمر أعداء الثَّورة عند هٰذه البداهات الثَّلاث علىٰ الإطلاق، والمسألة ليست بهٰذه الميكانيكية الخطيَّة علىٰ الإطلاق، فقد تقف ضدَّ الثَّورات أطرافٌ معاديةٌ للأنظمة التي تقوم عليها الثَّورات ليس حبًّا بهٰذه الأنظمة ولا إيماناً بها ولا ثقةً فيها ولا أملا في انتفاء العداوة ولا حَتَّىٰ طمعاً في انتصار النِّظام علىٰ الثَّورة... وإنما إمَّا خوفاً علىٰ تضرُّر مصالحها، أو لإلحاق مزيد الضَّرر بهٰذه الدَّولة التي تقوم فيها الثَّورة، أو لإحراج أطراف أُخْرَىٰ أو رُبَّما غير ذٰلكَ من الأسباب.

بعد هٰذه البداهات والتَّحفُّظ المضاف تبقى مسألةٌ عجيبةٌ غريبةٌ بل وأيضاً مريبةٌ في وجود فريق يقف ضدَّ الثَّورات من المستضعفين أو المهمشين أو الفقراء... أو من يبدون كذٰلكَ لسببٍ أو لآخر. علىٰ افتراض أمورٍ ثلاثةٍ:

أولهما أنَّ الثَّورة حقٌّ لفساد النِّظام وإيصاله النَّاس إلىٰ حدِّ الثَّورة.

ثانيهما أنَّ هٰؤلاء الواقفين ضدَّ الثَّورة، المدافعين عن هٰذا النِّظام هم من هٰذا الشَّعب الذي يقفون ضدَّه ويحاربونه.

ثالثها في الثَّورات ينتفي مبرر الخوف ولا تبرير لواقف ضدَّ الثَّورة بالخوف لأنَّ أول ما تهدمه الثَّورات هو الخوف، ومن ثمَّ فلا مبرر لأحدٍ أو طرفٍ أو فريقٍ بأنَّه يقف ضدَّ الثَّورة لخوفه من النِّظام.

أتحدث عن الوقوف ضدَّ الثَّورة والدِّفاع عن النِّظام المستبد ولا أتحدَّث عن السَّلبيين أو الحياديين ولا مسوِّغ لهم في الثَّورات وخاصَّة الكبرى منها، ولا

أتحدَّث عن الأنانيين الذين ينتظرون تضحيات الآخرين ليحصوا هم ثمار تضحياتهم... أتحدَّث عن الذين يقفون مع النِّظام ويدافعون عنه بشراسةٍ لا تصدق أحياناً، وأحياناً بدمويَّةٍ مدهشةٍ.

من البداهة بمكان أنَّ محاربة الثَّورة والدِّفاع عن النِّظام المستبدِّ الفاسد تمارس مختلف أنواع الادعاءات والاتهامات والشَّناعات والفبركات وغيرها كثير.

سأفترض أنَّ النِّظام أو السُّلطة ليس فاسداً إلىٰ هٰذا الحدِّ، ولا استبداديًّا إلىٰ الحدِّ المضجر، من يدافع عن السلطة (النِّظام) من أيِّ منظورٍ غير علميٍّ أو غير منهجيٍّ فهو يقف موقفاً شخصيًّا، طائفيًّا، فئويًّا، نفعيًّا... يقف موقف مالك السُّلطة، والسُّلطة ليست ملكاً لأحدً أبداً، حَتَّىٰ في الأنظمة الملكيَّة فإنَّ السُّلطة تفويضٌ وليست ملكاً، وهٰذا مبحث سياسيٌّ طويل.

السُّلطة (النِّظام) أفراد مفوَّضون بإدارة الدولة، وواجب الجميع الوقوف لهم بالمرصاد عند أيِّ خللٍ أو فسادٍ أو تقصيرٍ... ومن حقِّ الشَّعب تغييرهم وإسقاطهم والإتيان بغيرهم كلَّما استدعت الظُّروف ذٰلكَ... سواء بثورة او بانتخابات أو بأيِّ طريقةٍ يراها الشَّعب. ولا يحسبن أحدٌ أني أدعو إلىٰ الفوضى والهجوم بالتَّغيير كل يوم ويومين أو شهر أو شهرين أو سنة... إطلاقاً. الشعوب ليست هواة ثورات، والثَّورات ليست نزهة مع مشاوي وحفلة رقص.

الشعوب لا تقوم بالثَّورات إلا بعد استنفاد فرص التَّفاهم وفرص الصَّبر وفرص السُّكوت... هناك أصول وضوابط وقوانين هي التي يجب أن تكون الأساس والحكم لا فردية الحاكم، ولا فوضويَّة الشَّعب.

الخطأ بل الجريمة التي ارتكبها العرب طيلة ما سبق من القرن العشرين وملحقه الحادي والعشرين هي أنَّهُم استسلموا للأنظمة الحاكمة وتركوها تعيث فساداً وتستحكم في مفاصل الدولة وتقف بالمرصاد أمام أيِّ تحرُّكٍ لمحاربة الفساد الذي كان داعياً للثورة بكل ما يستدعي الثَّورة من مقومات.

ولٰكنَّ طبيعة الشَّعب التي أشرنا إليها قبل قليل من عدم الرغبة في الثَّورة، وعدم الميل إليها، وعدم ممارساتها وكأنَّهَا هواية أو عادة أدى إلىٰ أن استفحل الفساد، وكثر الفاسدون وصاروا هم الدِّرع المنيع أمام محاسبة الأنظمة أو الثَّورة عليها. تضخم فريق في الفاسدين في الأنظمة العربيَّة الذي اتَّحد مع الأنظمة وصار جزءاً صميميًّا منها، وهو موضوع البداهة الثَّانية التي تحدَّثنا عنها بدايةً.

وبفعل تراكميَّة الصَّمت والاستكانة، وتراكمية الفساد وتنظيمه، تحوَّل النِّظام (السُّلطة) في بعض الدُّول العربيَّة إلىٰ سلطة فئوية، طائفيَّة، عشائرية، ماقوية كل دولة حسب بنيتها وبنية الطَّبقة الحاكمة... وهٰذا ما أضاف إلىٰ عقبات التَّغيير والثَّورات عقبةً نوعيَّةً جديدةً وخطيرةً تستغلها الأنظمة وتتخوَّف منها الشُّعوب وهي الصِّراع الدَّاخلي الفئوي: الطائفي، العشائري، الحرب الأهليَّة...

الثَّورات ليست حرباً أهليَّة ولا يمكن أن تكون كذٰلكَ، الثَّورات لا ترغب ولا تريد ولا تقبل أن تتحول إلىٰ حرب داخليَّة، ولا إلىٰ حرب أهليَّة، ولا إلىٰ صراعٍ طائفيٍّ، ولا إلىٰ صراعٍ فئويٍّ، لأنَّ هٰذا ما لا تريده الشُّعوب ولا تقبله ولا ترضاه، ولذٰلك هي تتخوَّف منه، ولأنَّهَا تتخوَّف

منه فإنَّ أوَّل ما تفعله الأنظمة لمواجهة الثَّورات هو إيقاد الفتنة الدَّاخليَّة المناسبة حسب الدَّولة: طائفيَّة، عشائريَّة، دينيَّة، أقلويَّة، عرقيَّة، مناطقيَّة،... كلُّ دولةٍ حسب بنيتها. وقد شاهد الجميع ذَلكَ في مختلف الثَّورات المعاصرة في العالم العربيِّ وقبله في العالم الأوروبي على الأنظمة الاشتراكيَّة، وفي غيرها من دول إفريقيا...

الخوف من الحرب الدَّاخليَّة بمختلف أنواعها هو أكثر ما يخيف الشُّعوب، ليس حرصاً على سفك الدِّماء وإنما لتكلفتها الخطيرة على مختلف المستويات البشريَّة والأخلاقيَّة والاجتماعيَّة والنفسيَّة والتاريخيَّة... ولذلك تلعب أنظمة الاستبداد هٰذه اللعبة على الفور...

الأمور تدار بشحنٍ طائفيٍّ، ديني، فئويٍّ، أقلويٍّ، عرقيٍّ... ورُبَّما كلها معاً. وبعض أنواع الشَّحن تكون موجودة أصلاً عند الأقليات غالباً من دون وجود ثورة، فكيف بالثَّورة؟

تجد الأنظمة ما البذرة التي تخدمها. وتتحوَّل السُّلطة إلى ملكيَّةٍ شخصيَّةٍ، تتعامل الفئات التي تقف مع الأنظمة على أنَّها تملك السُّلطة وتدافع عمَّا تملكه ولا تدافع عن النِّظام أو شخوصِ النِّظام. هٰذا على الرَّغْمِ من أنَّها كانت أو يمكن أن تكون في موقع الفقر والتَّهميش قبل الثَّورة.

هنا تتضح الرؤيا، وتبدو الإجابة عن التَّساؤلات المحيرة التي تفرض ذاتها عند من يدافع عن الرئيس وكأنه هو الرئيس، يدافع عن النِّظام وكأنه له أسهم ملكية في النِّظام.

هنا صرت تعرف لماذا عندما يتمُّ نقد النِّظام (السُّلطة الحقيقيَّة لا الشَّكليَّة) يهبُّ هؤلاء النَّاس لتخوين النَّاقد واتِّهامه أنواع الاتهامات في أخلاقه ودينه وعقله وعلمه وشكله وطوله وعرضه...

لماذا يهبون هٰذه الهبَّة للدِّفاع عن الفاسد والظَّالم والمستبدِّ دفاعهم عن أنفسهم علىٰ الرَّغْمِ مما يبدون عليه من أنَّهُم كانوا مهمشين قبل الثَّورة.

يبدو للكثيرين أنَّ ثَمَّة حلقةً مفقودةً، ولٰكنَّ الحقيقة خلاف ذٰلكَ. لا توجد حلقةٌ مفقودةٌ ولا هم يحزنون. من يقف هٰذا الموقف يبرره تبريراً فقط لا تسويغاً أن يكون هو المدان أو من أصول أسرته. أقول تبريراً لا تسويغاً بمعنى دفاع المرء النِّفسي العاطفي عن أخيه أو أبيه أو ما شابه ذٰلكَ. ولٰكنَّهُ لا يمكن أن تسويغاً لأنَّ الدِّفاع عن الخطأ غير مقبول مهما كانت صلة المرء بالمدان أو المتَّهم.

عندما تدافع عن السَّلطة الحاكمة الفاسدة المستبَّدة أي النِّظام الفاسد المستبد، ضدَّ الشَّعب الثائر عليه أو النَّاقد طغيانه وفساده فأنت شريكٌ، أو مستفيدٌ حَتَّىٰ ولو كنت متضرِّراً منه كما تزعم وتدَّعي. أو أنَّك تدافع عنه دفاعاً طائفيًّا أو فئويًّا ما لشعورك الخاطئ بالتَّأكيد بأنَّ السُّلطة ملك فئتك أو طائفتك والسلطة تفويض لا ملك.

لا يوجد ما يسوِّغ الدِّفاع عن فاسدٍ بحالٍ من الأحوال. عندما تدافع عن الفاسد، عن الظالم، عن القاتل... فأنت في الموقف الخطأ بكل تأكيد. أنت شريك في الجريمة التي تدافع عنها بكلِّ تأكيد... ولا تستغرب من موقف الآخرين منك... لا تستغرب أن توجه إليك أصابع الاتِّهام، لا تستغرب أن

يطالب الآخرون بمحاسبتك... ولا تقل أبداً إنَّك لا تعرف الحقيقة فهٰذا عذر أقبح من الذَّنب ذاته، ولا يمكن قبوله بحال من الأحوال.

أغرب ما في الأمر في هٰذا السياق أمران:

أولهما ضعيف يستقوي بغريب سيتركه يوماً ما ليواجه مصيره وحيداً.

ثانيهما وهو من أشد الفجور: أن قاتل البريء يصوِّر جريمته علىٰ أنَّ البريء وضع رقبته تحت سكين القاتل وأمسك بيد القاتل وأجبره علىٰ حزِّ رقبته، وبعضهم من في الفجور يطالب القتيل بالاعتراف بأنَّه هو الذي قتل نفسه، وهو نادم علىٰ فعلته.

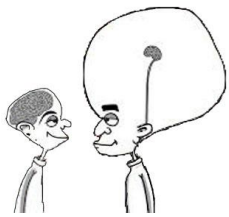

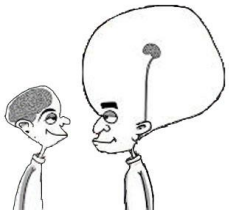

الفصل الثاني عشر

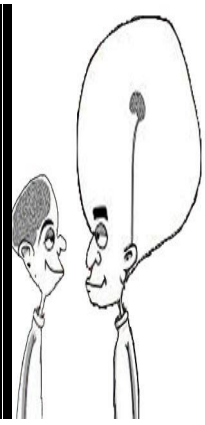

الثوار يحاربون الثورات

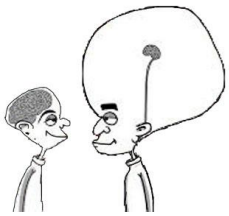

انزعج الزَّعيم الصِّيني ماو تسي
تونج عندما سأله الفيلسوف الفرنسي
أندريه مالرو: «لماذا عندما ينتصر
الثوار يصبحون أعداء للثورة؟»(١٤).

لم يخطئ أندريه مالرو في تصوره أبداً، فالتاريخ يشهد شهادةً لا تقبل الشَّكَّ أنَّ كلَّ الثَّورات التي انتصرت صارت أكبر أعداء الثَّورة عندما استملت السُّلطة. مسألةٌ غريبةٌ من النَّاحية المنطقيَّةِ والواقعيَّة. الثَّائر يظلُّ ثائراً ونصيراً للثَّورات حَتَّىٰ يصل إلىٰ السُّلطة بثورته ذاتها أو حَتَّىٰ بطريقة أُخْرَىٰ فإنَّهُ ينقلب بقدرة قادرٍ إلىٰ عدوٍّ للثَّورة في البلد الذي هو فيه صاحب سلطة، ولَكنَّهُ غالباً يظلُّ يبعبع بمناصرة ثوارت الشُّعوب الأُخْرَىٰ. من حقِّ كلِّ الشُّعوب أن تثور إلا الشَّعب الذي يحكمه فإنَّهُ ليس من حقِّه أن يثور!!!

ماو تسي تونج الذي قاد ثورةً وانتصرت ثورته وقاد وطنه قطع الطريق علىٰ أيِّ ثورةٍ يمكن أن تكون في الصِّين وحارب كلَّ فكرٍ ثوريٍّ في الصين...

ليس ماو وحيداً ولا متفرداً في ذَلكَ، كلُّ الثَّورات كان هٰذا طريقها وسلوكها. ثورة المظلوميَّة العباسيَّة علىٰ الأمويين لم تكتف بالانتصار بل مسحت عن الوجود مسحاً تامًّا كلَّ من ينتمي إلىٰ العائلة الأموية وحَتَّىٰ كل من يناصرها، وليس ذَلكَ فحسب بل نبشت قبور بني أمية ونثرتها في الرياح.

(١٤) .كتب هٰذا المقال في ٢٥/٢/ ٢٠١٥م، ونشر في ١/ ٤/ ٢٠١٥م علىٰ موقع الهيئة السُّورية للإعلام.

ومنذ ذَلكَ التَّاريخ، وما قبله، وكل الثَّورات تسير علىٰ هٰذا النَّهج ذاته من دون نقص تفصيلةٍ واحدةٍ بمعنى من المعاني. الثَّورات الأوروبيَّة، الثَّورات في أمريكا، الثَّورات في إفريقيا، الثَّورات في آسيا... في بقاع الأرض كلها؛ ما قامت ثورة وانتصرت إلا كان علىٰ رأس جدول أعمالها الاعتراف لذلاتها بأنها خاتمة الثَّورات في بلدها، وأنَّها أوصلت الشَّعب إلىٰ مبتغاه، علىٰ الرَّغْمِ من أنَّ كلَّ الثَّورات تقريباً بدأت بنهش شعوبها والتَّضييق عليها والاستبداد بها بأكثر مما كان قبل الثَّورة. بالكاد تجد ثورة لم تأكل الشَّعب الذي ثار والذي ثارت من أجله بطريقة أشنع وأبشع مما كانت عليه قبل الثَّورة.

الاستثناء موجود، موجود في حالات أشخاص لا أكثر، أما بنية الثَّورة التي تصل إلىٰ السُّلطة فهي ذاتها؛ تحتكر السُّلطة وتقف سدًّا منيعاً أمام أي ثورة يمكن أن يقوم بها الشَّعب من جديد.

كيف يحدث ذَلكَ ولماذا؟

يبدو أنَّهُ سحر السُّلطة وإغواءها. لا تسألوا عن الذرائع التي يتخذوها الثوار أو الثَّوريون الذين يصلون إلىٰ السُّلطة كي يحاربوا من ثور عليهم، ومن يفكر في الثَّورة عليهم. الذرائع أكثر من أن تعدَّ أو تحصى. ولٰكنَّهَا كلها تدور حول خدعة الشرعيَّة؛ شرعيَّة الثَّورة، شرعيَّة تمثيل الشَّعب. عشرات السنوات تمضي علىٰ انتصار الثَّورة واستلامها السُّلطة وتظل السُّلطة تحكم باسم الثَّورة والشرعيَّة الثَّوريَّة. أربعين سنة كاملة ومجلس قيادة الثَّورة يحكم العراق باسم الشرعيَّة الثَّوريَّة حَتَّىٰ أزالها الاحتلال الأمريكي. وفي إيران منذ نحو أربعين سنة ومجلس قيادة والحرس الثَّوري يحكم إيران باسم الثَّورة والشرعيَّة الثَّوريَّة. في القذافي واللجان الثَّوريَّة أربعين سنة وهي تحكم ليبيا باسم الشرعيَّة الثَّوريَّة...

أي شرعيَّة ثورية لهٰذه التي تكون إلىٰ الأبد، لا تزول إلا بزلزال؟

الشرعيَّة الثَّوريَّة أشهر سنة سنتين تنتقل بها البلاد من فوضى الثَّورة وتبعاتها إلىٰ الدولة وبعدها لا تعود هناك ثورة ولا شرعيَّة ثوريَّة. ومحض البدء بتكريس سلطة شرعيَّة ثورية يعني أنَّها الثَّورة ضاعت وركبها من ركبها، وسرقها من سرقها.

الثَّورات التي يقودها أشخاص أو أحزاب لهٰذا طريقها بكل تأكيد. الثَّورات التي تكون شعبية شاملة تكون غالباً أمام احتمالين:

إما أن تسرق وهي تنتصر؛ بعد النصر أو وهي علىٰ وشك الانتصار، ويكون مصيرها مصير الثَّورات التي يقودها اشخاص أو أحزاب.

أو أن تلملم أطرافها وتفرض إيقاعاً يجول دون سرقة الثَّورة وتبني دولة، لن تنجح علىٰ الفور، ولا بوقت سريع ولٰكنَّهَا تستطيع رويداً رويداً أن تبني الدولة إذا بقيت النُّخَبُ الفكريَّة والسِّياسيَّة مخلصة للثورة وأهدافها، كما حدث في الثَّورات الأوربية الغربي التي سلمت زمام أمورها للنخب الفكرية التي كانت علىٰ قدر المسؤولية والأمانة وأوصلت أوروبا إلىٰ بسنوات قليلة إلىٰ قيادة العالم والسيطرة علىٰ العالم ردحاً من الزمن. ويعني أكثر ما يعنيني في سياقنا هو بناء دولة القانون والديمقراطية جزء من دولة القانون وليست صورته ولا كله.

بهٰذا المعنى فإنَّ الثَّورة لا تقطع رأس القط من ليلة العرس ستضيع بكل تأكيد. الثَّورة التي لا تعرف كيف تقطع دابر المتسلقين والوصوليين ستضيع بالتأكيد، الثَّورة التي لا تفرض بنية الدولة ودستورها الصارم قبل فوات الأوان

ستضيع بالتأكيد. الثَّورة لا تطيع نخبها الواعية وتسلم نفسها للأدعياء في الفكر والسياسة وغيرها ستضيع بكل تأكيد.

إن سحر السُّلطة وإغواءها يفوق كل إغواء وإغراء. ومن يصل إلىٰ السُّلطة لا يمكن أن ينزحاح عنها إلا بقوة قاهرة. الرئيس في العالم الغربي لا يترشح لأكثر من دورة أو دورتين عفَّة وطهارة ورقيًّا حضاريًّا، القانون الصَّارم وحده هو الذي يحول بَيْنَه وبَيْنَ التشَّبث بالكرسي بأظافره ولسانه وأسنانه. ولولا سلطة تطبيق القانون قاهرة لوجدنا الرئيس يظل يترشح حَتَّىٰ (يسقط) في الانتخابات.

إذا انتصرت الثَّورة ولم تكبل السُّلطة بالدُّستور الصَّارم والقوانين الصَّارمة فإنَّهَا ستجعل الثَّورة والوطن في مهبِّ الرِّياح كما حدث في كثيرٍ من الثَّورات.

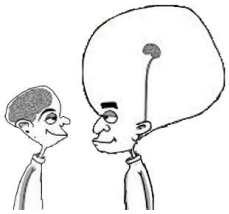

الفصل الثالث عشر

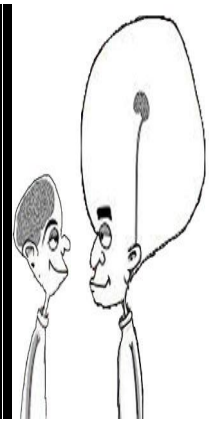

الانقلاب على الثورة

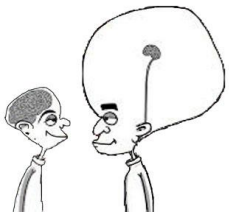

عندما تجتاحك كآبة خرساء
ولا تعرف ماذا تفعل بحالك، ولا
كيف تخنق انفعالك افتح التلفاز
وتابع أخبار الثَّورات العربيَّة
اليوم(١٥)!

بكُلِّ بساطةٍ وسهولةٍ ويسرٍ وأريحيَّةٍ تَجِدُ أنَّ الثَّورة المصريَّة الحَقيقيَّة هي عودة السُّلطَة التي ثار عليها الشَّعْب بكُلِّ رموزها وتفاصيلها إلىٰ الحكم والقضاء علىٰ كُلِّ من قام بالثَّورة الحَقيقيَّة... تابعوا منظري النِّظام المصري اليوم وشاهدوا كيف يمجدون ثورة السيسي علىٰ النِّظام الذي أفرزته الثَّورة بديمقراطيَّة غيرٍ مسبوقةٍ في مصر. كيف يقررون بضميرٍ مرتاحٍ أنَّ القضاء علىٰ الثَّورة الحَقيقيَّة هو الثَّورة الحقيقة وأنَّ الثَّورة الحقيقة هي مؤامرة علىٰ الدَّولة والشَّعْب والأمن القومي.

نظام السيسي الذي برَّأ رموز نظام حسني مبارك كلَّهم وحسني مبارك ذاته من التُّهم التي وجهت لهم كلها وخرجوا من وراء القضبان ليعود بعضهم إلىٰ ممارسة مهامه في السُّلطَة بطريقةٍ أو بأُخْرَىٰ... هٰذا

(١٥) .كتب هٰذا المقال في ٢/٢٥/ ٢٠١٥م، ونشر في ١/ ٤/ ٢٠١٥م علىٰ صفحاتي في مواقع التواصل الاجتماعي في الفترة ذاتها.

النِّظام يقدم نفسه على أنَّهُ هو الثَّورة وليس الثَّورة التي أسقطت النِّظام، الثَّورة التي اسقطت النِّظام مؤامرة صهيونيَّة أمريكيَّة خليجيَّة صينيَّة يأجوجيَّة مأجوجيَّة مريخيَّة[١٦]!!!

بكُلِّ بساطةٍ وسهولةٍ ويسرٍ وأريحيَّةٍ تَجِدُ أنَّ الثَّورة الليبيَّة الحَقيقيَّة هي التي يقودها خليفة حفتر مع ابن عم القذافي وصهره ضدَّ الثَّورة التي قامت على القذافي. ما كادت تضع الثَّورة أوزارها وتبدأ ببناء الدَّولة حَتَّىٰ خرج علينا حفتر من تحت الأرض وتبين أنَّهُ مدعومٌ ومؤيَّدٌ من كُلِّ رموز نظام القذافي الذين فرُّوا من ليبيا، وعلىٰ رأسهم أنظمةٌ إقليميَّة وعربيَّة تحديداً[١٧]، وفتحوا النَّار علىٰ الدَّولة وعلىٰ بناء الدَّولة وأشعلوا حرباً في ليبيا تأكل رحاها الثَّورة الليبية وليبيا معاً. وتجد مع ذَلكَ كلِّه أبوقاً كثيرة تريد إقناعك بأنَّ هٰذه هي الثَّورة الحَقيقيَّة؛ ثورة رجال القذافي ونظام القذافي علىٰ الثَّورة هي الثَّورة الحَقيقيَّة!!!

في اليمن كانت الثَّورة الثَّالثة من ثورات الرَّبيع العربيِّ، هٰذه الثَّورة التي أجهضت بالمبادرة الخليجيَّة[١٨] أمَّنت خروجاً آمناً مضموناً كريماً لعلي عبد الله صالح لا يختلف الأمر أبداً فعاد علي عبد الله صالح بالتَّنسيق مع الحوثيين واحتلوا

---

(١٦) . الصهيونية الأمريكية الخليجية الأوروبية الروسية الإيرانية كلها تقف بوضوح صريح جهاراً نهاراً مع السيسي وانقلابه وتدعمه كل أنواع الدعم علىٰ الرَّغْمِ مما يبدو بينها ذاتها من صراع وتناحر، إلا أنَّها تآلف في دعم السيسي وحفتر والأسد والحوثة.

(١٧) . الأنظمة العربية معظمها ضارت تدعم حفتر دعماً واضحاً وصريحاً، وحَتَّىٰ صدور هٰذا الكتاب فإنَّ الدول الغربية عامة وروسيا المتصارعة معه وإيران يدعمون حفتر بمختلف أنواع الخبث ومنه الصريح الواضح جهاراً نهاراً.

(١٨) . السعودية هي مهندسة المبادرة وصاحيتها وقائدتها ومتابعتها وضامنتها ولٰكنَّهَا سميت بالمبادرة الخليجية علىٰ أساس أن الخليج يتبناها وهو كذلك.

اليمن وأسقطوا الثَّورة ومؤسَّسات الدَّولة وبكُلِّ بساطةٍ وسهولةٍ ويسرٍ وأريحيَّةٍ تَجِدُ الحوثيين يعلنون أن انقلابهم علىٰ الثَّورة بالتَّنسيق مع علي عبد الله صالح هو الثَّورة الحَقيقيَّة!!!

حَتَّىٰ في تونس مهد الرَّبيع العربيِّ التي نجحت في الإفلات من الفتنة والاحتراب والاقتتال أخفقت في منع النِّظام السَّابق من العودة إلىٰ السُّلطَة بطريقة لا تخلو من الكوميديا السوداء. عندما نجح الباجي قائد السبسي وحزبه أولاً في الانتخابات البرلمانية ثمَّ في رئاسة الجمهورية، كان التَّساءل العريض العريض جداً: إذن أيُّ ثورةٍ هٰذه ولماذا قامت؟

صحيحٌ عودة نظام زين العابدين بن علي إلىٰ السُّلطَة كان بهدوء وديمقراطية كما بدا وكما هو الواقع، إلا أنَّ وراء عودته حرب ضروس قادتها مخابرات أنظمة عربيَّة باقتدار وأنفقت بعض الدَّول العربيَّة من أجل فوز السبسي برئاسة الجمهوريَّة ما يكفي لنجاحه في انتخابات الرِّئاسة الأمريكيَّة من دون جنسيَّة أمريكيَّة.

من الطَّبيعي أن تجد مؤسَّساتٍ إعلاميَّةً كبرىٰ تدعم هٰذه المسارات اللامنطقية في التَّعبير والتَّوصيف. المسألة ليست تعاطفاً مع هٰذا الطَّرف أو ذاك، وليست حبًّا أو كرهاً بهٰذا الطَّرف أو ذاك، ولا هي حَتَّىٰ إيماناً بمنهج هٰذا الفريق أو ذاك. علىٰ الإطلاق، المسألة ليست من هٰذا الباب. المسألة مسألة منطق، مسألة اتساق مع التفكير السَّليم. أنا شخصيًّا متعاطفٌ مع الثَّورات التي وقعت كلها من دون استثناء، وليس هٰذا فحسب بل أذكر أني في لقاء تلفزيوني في عام ٢٠٠٠م حذَّرت الأنظمة العربيَّة من الانفجار خلال بضع سنواتٍ قادمةٍ ما لم يتصالحوا مع

شعوبهم في أسرع وقت، واللقاء منشور على اليوتيوب. على أيِّ حالٍ، تحليلي هنا ليس أبداً من منطلق تعاطفيٍّ مع الثَّورات، تحليلي منطلقٌ من بداهاتٍ اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ وأخلاقيَّةٍ... من بداهات التَّفكير المنطقيِّ عامَّة.

إنَّ ما حدث ويحدث في ربوع الرَّبيع العربيِّ ليس ثورات أبداً أبداً أبداً. إنَّهُ عودة الأنظمة السَّابقة إلىٰ الحكم رُبَّما بالأشخاص ذاتهم، ورُبَّما بأشخاص آخرين ولٰكنَّهُم من صميم النِّظام السَّابق. وهٰذا يعني ببساطةٍ وسهولةٍ ويسرٍ وأريحيَّةٍ أن الثَّورة بح، قضي عليها. وانتصر النِّظام السَّابق علىٰ الثَّورة بكل ما تحمله كلمة الانتصار من معاني السَّحق والمحق والمحاكمات.

علىٰ أيِّ حال، ليست الدَّول العربيَّة وحدها مبتلاة بهٰذا البلاء. هٰذه الظَّاهرة، ظاهرة الانقلاب علىٰ الثَّورة ظاهرة عالميَّة قديمة ليست بالجديدة وليست محصورةً بعالمنا العربيِّ وحده. لنعد بضع سنين إلىٰ الوراء نجد الثَّورة الرومانيَّة العارمة التي أذهلت العالم حينها عندما أطاحت بأشدِّ طغاة العصر حينها نيقولاي تشاوشيسكو وسحلته أرجل الشَّعْب هو وزوجته علىٰ باب قصره في ١٩٨٩/١٢/٢٥م. تشاوشيسكو الذي خطب في المتظاهرين من شرفة قصره قائلاً: عندما يثمر الزيزفون تفاحاً يمكن أن يسقط تشاوشيسكو ... أسابيع فقط مضت علىٰ هٰذا التَّبجح وسقط تشاوشيسكو نفسه تحت أرجل المتظاهرين.

ومع ذٰلكَ خلفه إيون إيليسكو أحد أقطاب حزبه ومخابراته وامتصَّ الثَّورة ورويداً رويداً أعاد نظام تشاوشيسكو وكأنَّهُ لم يسقط وحكم

رومانيا ست سنوات تململ الشَّعْب وكاد يثور ثانيةً فترك السُّلطَة ليعود بعد عشر سنوات ويحكم من جديد أربع سنوات أُخْرَىٰ انتهت عام ٢٠٠٤م(١٩).

إذا أوغلنا في التَّاريخ قليلاً وجدنا أنفسنا أمام الثَّورات الأوروبيَّة في أواخر القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر، وكيف كانت تلف الدُّنيا وتدور بالثَّورات والثَّورات المضادة. لم يكن حينها ما يسمَّى تجذر النِّظام الأمني بالطَّريقة المعاصرة، تجذر النِّظام في الدَّولة علىٰ نحو ما نشهد اليوم، ولذلك جاز تسميتها بالثَّورات المضادة. ثورة وثورة ضد الثَّورة.

الثَّورة المضادة تسمية لا تصلح أبداً لما يحدث في العالم العربي من انقلاب علىٰ الثَّورات. الحقيقة التي نسجلها للتَّاريخ، ويجب أن يدركها الجميع أن ما حدث هو انقلاب أنظمة الاستبداد علىٰ الثَّورات وعودة الأنظمة السَّابقة إلىٰ الحكم.

السَّبب سببان متتامَّان. لا يخفى علىٰ أحدٍ مدىٰ تجذر الأنظمة العربيَّة وتغلغلها في بنىٰ الدَّولة والمجتمع إلىٰ درجةٍ تشابكيَّةٍ خطيرةٍ تجعل من الصُّعوبة بمكان اقتلاعها. اقتلاعها يحتاج إلىٰ ثورة وزلزال في آنٍ واحدٍ. الثَّورة وحدها لا تكفي أبداً لاقتلاع الأنظمة من الحكم والتَّحكم بمفاصل الدَّولة. الثَّورة يجب أن تكون مشفوعة بزلزال.

---

(١٩) . لنتخيل مدى استحكام السلطة بيد النظام الذي تمت الثورة عليه وسحلت قائده حَتَّىٰ يكون الحاكم بعد الثورة من رموز النظام، ويترك السلطة عشرة سنوات ويعود ليحكم من جديد! ولنتخيل في الوقت ذاته مدى غباء الشعب وثورته التي لم تجتث النظام الذي ثارت عليه.

أي إنَّ الأنظمة متغلغلة في بنىٰ الدَّولة من جهة والشَّعْب الذي ثار لم يدرك هٰذه الحقيقة التي يعيشها بكلِّ جوراجه، ومن ثمَّ لم يتصرَّف عند نجاح الثَّورة بما يضمن له عدم عودة النِّظام السَّابق.

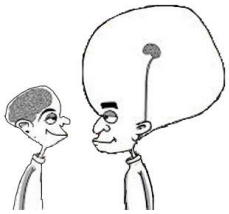

الفصل الرابع عشر

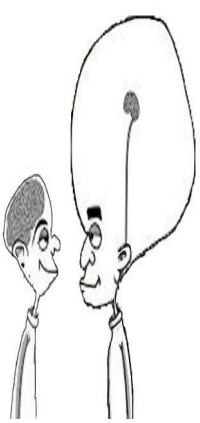

هل انتصار الثورة حتمي؟

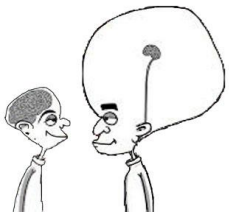

مــن يظنُّــون أنَّ الثَّــورات حتميَّــة النَّصر فهم واهمون، ولنا في تاريخ الثَّورات الكثير من النَّماذج التي يجب أن تكون أمام أعيننا وعقولنا، ثَمَّة ثورات انتصرت، وثَمَّة ثورات انهزمت، وثَمَّة ثورات اقتربت من النَّصر إلىٰ أبعد الحدود ولٰكنَّهَا انقلبت موازينها وانهزت، وثَمَّة ثورات أوشكت علىٰ الهزيمة وانتصرت(٢٠)...

نحن لسنا أمام قانونٍ ثابتٍ، ولا قاعدةٍ واحدةٍ نقيس عليها.

نحن في حقيقة الأمر أمام قوانين الحياة العاديَّة والمنطقيَّة، مع بعض ما يمكن أن يضاف من خصوصيَّة الثَّورات؛ من يخطِّط جيِّداً، ويعمل جيِّداً... يصل إلىٰ النَّتيجة التي يريد أن يصل إليها، من يتواكل ويتكاسل ويخلط الحابل بالنَّابل ويفقد الضَّمير ويقدِّم مصلحته علىٰ مصلحة الوطن... كلُّ أولئك يقودون إلىٰ نتائج عكسيَّة، احتمال كبير للهزيمة.

(٢٠) .كتب هٰذا الفصل في ٢٠١٣/١٢/١٣م وهو مجموعة تعليقات ومقاربات نشرت قبل ذٰلكَ وفي الفترة ذاتها في مواقع التواصل وتم استكمالها في هٰذا المقال الذي نشر لاحقاً في سراج برس بتاريخ ٢٤/ ٣/ ٢٠١٥م. بقي أن أشير هنا إلىٰ أنَّ هٰذا المقال جاء ردًّا علىٰ سيل الوثوقية العمياء بحتمية انتصار الثورة السوريَّة، ألمر الذي أوصلها إلىٰ ما وصلت إليه الآن من دمار وانهيار وفوضى لا ندري إلىٰ أين تنتهي. وهٰذا في الوقت ذاته ردٌّ علىٰ كل من يقول بحتمية انتصار الثورة أي ثورة.

الأمر ليس معادلة استخراج العطر من المرحاض، ولا نضالاً لتحويل الخشب إلىٰ ذهب، المعادلة واضحة وبسيطة...

ولذلك فإنَّ انتصار الثَّورة بهٰذه الوجوه البارزة أمرٌ مستحيلٌ، أمَّا الوجوه غير البارزة التي تأتينا أخبار انتصاراتها فهي التي يمكن أن تصنع النَّصر، ومع ذٰلكَ إذا لم تكن محقِّقة لشروط نصر الثَّورة فإنَّ انتصاراتها الجزئيَّة لن تكون إلاَّ إضاءات خاطفةٍ في الظلام تلمع حيناً وتختفي.

إنَّ الذين يتصرفون علىٰ أساس أن نصر الثَّورة أمرٌ حتميٌّ ويتكلَّمون علىٰ هٰذه الحتمية فإنَّهُم يغامرون بكلِّ تضحيات الثَّورة ويضعونها في مهب الرياح واحتمالية الهزيمة.

علىٰ أيِّ حالٍ، إنَّ ما يخص توقعات انتصار الثَّورة أو عدم انتصارها، المسألة ليست قرار شخص، ولا أمنيات شعب، إنها جملة من الظروف والشروط والمعطيات المتكاملة، مدى تحققها هو الذي يحدد مسار النصر وإمكاناته.

المخاطر التي تهدِّد أيَّ ثورةٍ كثيرةٌ. أخطر ما يهدِّد أيَّ ثورةٍ هو الوثوقيَّة العمياء في النَّصر، أو الوثوقيَّة العميَّاء في الهزيمة. إنَّ الشَّعب الثَّائر الذي يتكل علىٰ أنَّهُ منتصر غصباً عن الطَّبيعة والبشر ولا يفعل ما يجب فعله بالطَّريقة التي يجب فعلها فإنَّهُ يسلِّم نفسه للهزيمة النَّكراء البشعة. والشَّعب الثائر الذي لا يملك إرادة النصر، ويؤمن بأنه لن ينتصر، أو لا يريد أن ينتصر، أو ينتظر العوامل الخارجية التي تساعده علىٰ النَّصر فاحتمال هزيمته كبيرٌ جدًّا. قلناها مرَّةً ونعيدها:

لا تستطيع قوَّةٌ خارجيَّةٌ أبداً أن تهزم ثورة أرادت أن تنتصر، لا يهزم الثَّورات إلا إرادة الثَّورات أن لا تنتصر. ولا تستطيع قوَّة خارجيَّة أن تنصر ثورة لا يمتلك أهلها مقوِّمات النَّصر، قد تستطيع القوَّة الخارجيَّة احتلال البلاد وتغيير

السُّلطة كما حدث في العراق وأفغانستان، ولٰكن هٰذه ليست ثورةً، هي احتلال وسلطة احتلال بأشخاصٍ من أهل البلد.

فيما يخص الثَّورة السُّورية بوضعها الرَّاهن، الأمور معقَّدةٌ نعم، ولٰكنَّهَا لا تختلف في سياقها العام عمَّا سبق الكلام فيه أبداً. هناك تخبيص وتلبيص، وهٰذا منطقيٌّ في ظلِّ هٰذه المعطيات التَّاريخيَّة، ولٰكن ما هو غير منطقيٍّ، وما لا يمكن القبول به أبداً أنَّهُ لا توجد قيادةٌ موحدةٌ يلتزم بها الجميع.

أخطر ما تعيشة الثَّورة الثَّورية منذ البداية حَتَّىٰ الآن هو أنَّهَا بلا رأس، بلا قيادةٍ موحَّدةٍ، بلا قائدٍ ثوريٍّ، والثَّورة التي لا قائد أو لا قيادة موحَّدة لها ستقود البلاد إلىٰ فوضى، والثَّورة التي لها أكثر من قيادة ستقود البلاد إلىٰ فوضى ودمار.

هٰذه حقائق وليست مخاوف، وبداهات وليست أفكاراً فلسفيَّةً معقَّدة يصعب علىٰ النَّاس إدراكها، إنَّهَا بداهات يدركها الأطفال ويمارسونها.

علىٰ أيِّ حالٍ، الحقيقة التي يجب أن تكون حاضرةً في أذهاننا هي أنَّ نتائج الثَّورة السُّورية ستحدَّد وجه المنطقة. مهما كانت نتائج الثَّورية السُّورية، من نصر نتمناه ولا نتمنى سواه، أو هزيمةٍ لا سمح الله، فإنَّهَا ستغيِّر وجه المنطقة وربَّما التَّاريخ البشري كلِّه.

مثلما كانت عاصمة الخلافة دمشق فاتحة عصرٍ جديدٍ للحضارة البشريَّة بكلِّ ما تعنيه الكلمة، فإنَّ دمشق ستكون فاتحة عصرٍ جديدٍ، وانعطافة في تاريخ البشريَّة علىٰ مختلف الأصعدة والمستويات.

باختصار أقول ما قلته في بداية الثَّورة من أنَّ الثَّورة السُّوريَّة ستغيِّر التَّاريخ، ما قبل الثَّورة السُّوريَّة شيءٌ وما بعد الثَّورة شيءٌ:

إمَّا أن تنتصر الثَّورة السُّورية ومن ثَمَّ فإنَّ الثَّورة المصرية ستنتصر ويعاد صوغ العالم العربي والإسلامي من جديد عبر بوابة الشَّام مصر.

أو أن تنهزم الثَّورة السُّورية لا سمح الله، ولهذا يعني أن الثَّورة المصرية أيضاً ستنهزم، ولٰكنَّ المنطقة ستتحول إلىٰ جحيم يأكل الأخضر واليابس، ولن تكون قوَّةٌ قادرةٌ علىٰ ضبط هٰذا الجحيم.

في الحالين كليهما: وجه التَّاريخ سيتغيَّر، وإسرائيل ستزول، وكلُّ هٰذه الجهود الأمريكيَّة الإسرائيليَّة لحماية نظامي الأسد والسيسي الحاميين لإسرائيل، إلىٰ جانب دول المنطقة، ستذهب هباء...

كلُّها ستذهب هباء، إسرائيل ستزول من الوجود وهي وأمريكا من فرض علىٰ المنقطة إزالتها، وإن لم يكن من السَّهل أبداً إقناعنا بقبولها في المنطقة.

ولذٰلك نصيحتي للشَّعب اليهودي في فلسطين أن يحمل أشياءه ويبدأ بالرَّحيل.

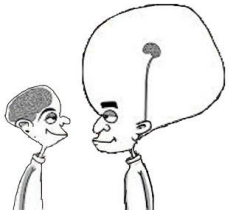

الفصل الخامس عشر

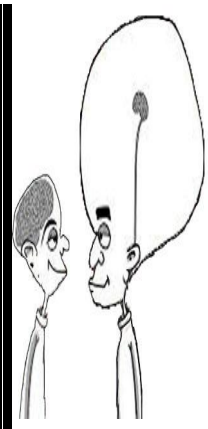

من الذين تجب محاكمتهم بعد الثورة؟

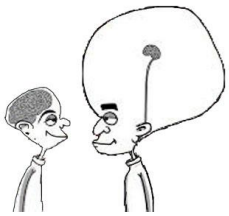

الثَّورات لا تقوم لتفتح محاكم
التَّفتيش. الثَّورات لا تقوم لتنصب
المشانق والمقاصل. الثَّورات لا تقوم
لتعدم الناس(٢١).

الثَّورات تقوم لتحيي النَّاس من بَيْنَ براثن الجلادين الذين ثارت عليهم. الثَّورة تقوم لتقيم العدل لا لتفتح سرادق الظُّلم الذي ثارت عليه. وإلا فإنَّهَا ليست ثورةً... إنَّهَا أيُّ شيءٍ إلا أن تكون ثورةً. بل إنَّهَا أيُّ شيءٍ سيءٍ لا أيَّ شيءٍ جيِّد.

هٰذه هي الحقيقة التي يجب أن تكون ماثلةً في أذهان الجميع. وعلىٰ من آمن بغير هٰذه الحقيقة أن يعيد النَّظر في قناعاته وقيمه وأخلاقه، عليه أن يعيد النَّظر في بنية وجدانه.

لا أقول هٰذا الكلام دفاعاً عن أحدٍ ولا هجوماً علىٰ أحدٍ.

منذ فترةٍ غير قصيرةٍ بدأت الإفتاءات من مختلف الجهات والأحزاب والحركات بمن يجب أن تعدمهم الثَّورة عندما تنتصر. وفي أحسن الحالات تصدير قوائم بمن يجب إقصاءهم من الحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة وإلغاء وجودهم إن لم يتم إعدامهم...

(٢١) .كتب هٰذا المقال ٢٠١٥/٥/٢٥م ونشر في ١٨/ ٦/ ٢٠١٥م في الهيئة السورية للإعلام، وهذا الفصل موجود في كتابي الثورة السورية وأزمة القيادة الصادر في عام ٢٠١٥م.

لنقف عند الثَّورة السُّوريَّة مثالاً: في بعض هٰذه القوائم سنجد أكثر من نصف الشَّعب السُّوري لن يكون خارج التَّغطية وحسب بل سيكون تحت الأرض بألف طريقةٍ وطريقةٍ.

حسناً، سأقول بداية إن كانوا يستحقُّون هٰذه النُّتيجة فلا يحقُّ لي ولا يحقُّ لأحد الاعتراض علىٰ ذٰلكَ أبداً، وأزيد تأكيداً لا يحقُّ لأحد أن يعترض بأيِّ طريقةٍ من الاعتراض...

ولٰكن إن كانوا فعلاً يستحقُّون هٰذه النَّتيجة؛ أن يكونوا تحت الأرض لا فوقها. فإمَّا أن يكونوا محرومين من حقوقهم السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والمدنيَّة... فهٰذا أمر غير ممكن واقعيًّا، وغير جائز في أي قانون من القوانين. لا يوجد إنسانٌ يمكن أن يعيش من دون هٰذه الحقوق، يمكن أن يحرم من أحدها تحت ظرفٍ أو شرطٍ زمنيٍّ وموضوعيٍّ معيَّنٍ، وإمَّا أن يحرم منها كلها فهٰذا لا يستقيم مع شريعة ولا قانون ولا وجدان أبداً.

إذن ثَمَّة شريعة وقانون وحَتَّىٰ وجدان هو الذي يجب أن يكون سنداً ومرجعاً وأساساً في التَّصفيات أو المحاكم الثَّوريَّة. ولا يحقُّ لكلِّ من هَبَّ وَدَبَّ أن يفتي ويتمنطق ويتفهمن ويتفتوق ويتفتوء فيمن يجب إعدامهم أو إخراجهم من تغطية الوجود الاجتماعيِّ أو السِّياسيِّ أو المدنيِّ أو غير ذٰلكَ.

لا اعتراض من جهة المبدأ علىٰ العقاب، ولا أزيد في الطُّنبور نغماً إذا قلت بل الواجب هو العقاب. ولٰكن لا عقاب من دون ذنبٍ، لا قصاص من دون جريمة.

قد يعترض معترضٌ قائلاً: ولٰكنَّ النِّظام يقتل ويعتقل ويشرِّد الأبرياء الذي لا ناقة لهم ولا جملاً في الصِّراع... يقتل الأطفال والنِّساء والشُّيوخ والشَّباب لا

يميِّز بَيْنَ أحدٍ وأحد، بَيْنَ من ثار عليه بَيْنَ من لم يثر... وقد دمَّر وشرَّد ونهب...

هٰذا صحيح. وعار علىٰ من لا يرى هٰذه الحقيقة. فماذا يجب أن يكون في هٰذه الحال؟

هل يجب أن تعدم الثَّورة كلَّ من وقف مع النِّظام وكلَّ من سكت عن النِّظام وكلَّ من لم يشارك في الثَّورة وكل من اشتغل النِّظام في يوم من الأيام؟!

إذا نظرنا في فتاوى الفيلفيسبوكيين منهم النكرة المجهول ومنهم المعروف ومنهم المشهور ومنهم من هو بلا قيمة ومنهم من له مكانته وقيمته، يطالبون بإعدام هٰؤلاء جميعاً غير مميزين بَيْنَ صالح وطالح، بَيْنَ جيدٍ وسيئ، بل غير مدركين أم أكثر الذي يريدون من الثَّورة أن تعدمهم وفي الحدِّ الأدنى تحرمهم حقوق الحياة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والمدنيَّة إنَّمَا هم من أوائل الثوار ومن أهم الذين ثاروا علىٰ النِّظام.

هل يعقل هٰذا الكلام؟ أليس الجنون أكثر تعقلاً من هٰذا الكلام؟

إذا كان الذين خرجوا في الثَّورة متأخرين أو متسلقين أو منافقين يريدون محاكمة الثُّوَّار الحقيقيين فهٰذا يعني أنَّهُم ثورةٌ مضادَّةٌ تخدم النِّظام أو في أحسن الأحوال تعمل علىٰ استبدال طغيان بطغيان أشد وأحقر وأقذر. أي ثورة هٰذه التي تحاكم رموزها وأعلامها؟

هٰذه هي الحقيقة التي لا يدركها المتفتوقون أو أنَّهُم يدركونها ويعرفون ماذا يفعلون. بتعميماتهم الغبية ورُبَّمَا المقصودة انتقلوا فجأة من محاكمة رموز النِّظام والمجرمين إلىٰ محاكمة الثُّوار الشُّرفاء الصَّادقين بذرائع ما أنزل الله بها من سلطان.

أنا هنا أمام حقيقة عزَّ وجود بديل لها وهي أنَّ لصوص الثَّورة الذين تصدروا المشهد وهيمنوا على الثَّورة يريدون التَّخلُّص من الشُّهود، يريدون التَّخلص من الطَّهارة التي تذكرهم بعهرهم وتفضح جرائمهم بذريعة أنَّ هٰذا ابن النِّظام، وهٰذا تربية النِّظام، وهٰذا اشتغل مع النِّظام... والتهمة الأشهر أنَّهُ ابن البعث. وعلىٰ الرَّغْمِ من أنِّي كتبت سابقاً في ذٰلكَ إلا أني فقط ألفت عناية الجميع إلىٰ أنَّ الأحزاب السُّوريَّة كلها قبل الثَّورة اليساريَّة واليمينيَّة وقفت وما زالت تقف مع النِّظام بقضها وقضيضها، وأفرادها وقياداتها، إلا استثناءات قليلة من الأفراد. وإذا نظرنا في شهداء الثَّورة لم نجد لهم أحداً إلا عرضاً أو ما يذكر نسبة بالمقارنة من غيرهم.

علىٰ أيِّ حالٍ، لنفترض أنَّ الأمر لم يصل إلىٰ هٰذه الصُّورة الأخيرة من محاربة الثوار الحقيقيين. لنقف عند الإعدام الشَّامل للنظام ببنيته الأخيرة، أي البنية التي بقيت مع النِّظام في الثَّورة.

هنا يجب أن نسأل: ما النِّظام الذي يجب إعدامه؟

لا مانع نظريًّا ولا عمليًّا ولا قانونيًّا من إعدام النِّظام. ولٰكن ما النِّظام الذي يجب أن يتمَّ إعدامه؟ وما طبيعة هٰذا الإعدام؟ وهل ستخترع الثَّورة السورية شرعيَّة ثوريَّة غير خلاصة الشَّرعيَّات الثَّوريَّة عبر التاريخ؟

في ساعة الجنون كلُّ شيءٍ ممكنٌ، وكل شيءٍ يمكن تنفيذه، طالما أنَّهَا ساعة جنون. ولٰكن عندما تأتي ساعة العقل ماذا سيكون؟

المسألة سهلة بسيطة لا معقدة ولا يستحسن تعقيدها. في حالة الحرب تحدث أشكال العجائب وألوانها، وأشكال الأخطاء وألوانها، هٰذا ليس تسويغاً لها، ولٰكنَّهَا تقع. ولٰكن عندما تضع الحرب أوزارها يجب أن تختلف البنى كلها،

وطرق التَّفكير كلها، وطرق غدارة الحدث والأزمة كلها. أقول يجب، ولهذا ما يحدث غالباً.

وعلىٰ هٰذا الأساس يجب أن نفكر قبليًّا كي نختصر الكثير من المسافات المعقَّدة، ونضع الآخرين أمام مسؤلياتهم.

هناك مجرمون هم من تجب محاكمتهم. وهناك مستويات من الحرمان من الحقوق المدنيَّة أو السِّياسيَّة أو الاجتماعيَّة ليست جديدةً علىٰ التَّفكير البشريِّ. هناك مشتركون مع النِّظام بسكوت أو صمت أو شبه ذَلكَ لا تصل جريمتهم إلىٰ حدِّ الإعدام يمكن حرمانهم من الحقوق السِّياسية أو بعضها فترة تطول أو تقصر، ولا يجوز بحال من الأحوال الحكم عليهم بالإعدام السِّياسي أو الاجتماعي أو المدني، هم بشر في مطلق الحال ولهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

وفي الوقت ذاته، وفي مقابل ذَلكَ تماماً أرجو أن لا يفهم من ذَلكَ أن الجرائم التي ارتكبت باسم الثَّورة يجب أن تمر من دون محاسبة أو معاقبة أو محاكمة. هناك الكثير من متسلقي الثَّورة الذين تجب محاكمتهم محاكم ميدانيَّة لا تقلُّ شدِّةً وقسوةً عن محاكمة مجرمي النِّظام. بل ثَمَّة من يقول إنَّ مجرمي النِّظام يقتلون وينهبون أعداءهم أمَّا متسلقي الثَّورة ولصوصها فقد ارتكبوا جرائمهم بحث الثَّورة والثُّوار ولذَلك يجب أن تكون محاكمتهم أشد وأقسى.

لا أحد فوق القداسة. هكذا يجب أن تكون نقطة الانطلاق فيمن تجب محاكمتهم بعد انتصار الثَّورة. الجريمة جريمة أيًّا كان مرتكبها. مثلما تجب محاكمة مجرمي النِّظام تجب محاكمة مجرمي الثَّورة في الوقت ذاته. للحرب قوانينها وتبقى الجريمة جريمةً. لا يمكن مساواة المقاتل علىٰ الجبهات بمن استغل الثَّورة ليعمل لصًّا

أو قاطع طريق أو ينهب بيوت النَّاس باسم الثَّورة... بل أرى أنَّهُ أبشع وأشنع من جندي النِّظام الذي قام بالفعل ذاته.

إذا لم نفكِّر بهٰذه الطَّريقة فنحن مقبلون علىٰ هاوية خطيرة. لا أدري إن كانت السلطة التي ستحلُّ محلَّ النِّظام انتقاليًّا ستكون بهٰذه الشِّدة التي نحذر منها أو بهٰذه القوننة التي نطالب بها. ولٰكنِّي أميل إلىٰ الظَّنِّ في الأمور لن تكون بهٰذه الطَّريقة ولا تلك. والحقيقة أنِّي أكاد لا أستطيع تحديد ملامح هٰذه المرحلة الانتقاليَّة.

ولذٰلك أقول المهم والخطير في الأمر هو بنية التَّفكير الإقصائيَّة الحمقاء التي ينادي أناس نكرات وأعلام تسهم في إثارة فتنةٍ وشرخٍ في المجتمع. وهٰذه البنية في التَّفكير قد تكون قاعدة سلوك فعليٍّ علىٰ أرض الواقع.

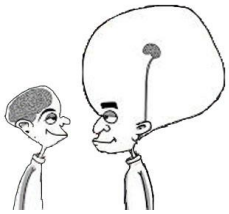

وجوب أن تكون الثَّورة ثورةً في كلِّ شيءٍ أمرٌ ليس من البداهات ولٰكنَّهُ يقترب منها. أيُّ قراءةٍ هادئةٍ فاهمةٍ للثَّورة وطبيعتها تقتضي الوصول إلىٰ وجوب أن تكون الثَّورة شاملةً.

نحن لن نناقش ذٰلكَ هنا فقد كان موضوع مناقشاتنا لوجوب الثَّورة في ميادين كثيرةٍ لا الميادين كلها، علىٰ الأقلِّ في عالمنا العربيِّ والإسلاميِّ.

مسألتان نودُّ أن نختم بهما هنا. الأولى ضرورات الثَّورة الدَّائمة، والثَّانية ضرورات الثَّورة في بيئةٍ معيَّنةٍ.

من البداهة بمكانٍ أنَّ المجتمع الغربيَّ كما يبدو واضحاً ليس بحاجةٍ إلىٰ ثورةٍ فالعدالة متحقِّقةٌ مع الحرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة وسيادة القانون... والرَّخاء الاجتماعيِّ والاقتصاديِّ للمواطن الغربيِّ... فلماذا الثَّورة؟

منطقيًّا لا حاجة أبداً للثَّورة في العالم الغربيِّ في ظلِّ ظرفه الرَّاهن، لأنَّ الثَّورة تقوم علىٰ الفقر والفساد والاستبداد ومجموع خصائص السُّلطة الاستبداديَّة التي ستكون سلَّة معطياتٍ متكاملةً تستدعي الثَّورة بالضَّرورة.

سلَّة المعطيات الموجبة للثَّورة متحقِّقة في العالم العربيِّ والعالم الإسلاميِّ والعالم الثَّالث قاطبة ورُبَّما من دون استثناء.

البيئة التي تعيشها شعوب العالم الثَّالث قاطبةً بيئةٌ موجبةٌ للثَّورة، الثَّورة التي من طبيعتها أنَّ ضرورتها يجب أن تكون شاملةً، وليس فقط من أجل إسقاط نظام حكم أو سلطة معيَّنة.

الثَّورة التي لا تكون شاملةً متكاملةً ستنعكس سلباً على على المجتمع والدَّولة وربَّما تنقلب الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه قبل الثَّورة، وقد حدث ذٰلكَ فعلاً في عددٍ من الثَّورات التي اكتفت بإسقاط نظام الحكم أو السُّلطة الحاكمة، فعادت السُّلطة بشخوص رموزها أنفسهم من دون تغييرٍ. وكأنَّ الثَّورة كانت على شخصٍ واحدٍ.

بعد استقرار الأمور لا بُدَّ من ثورةٍ جديدةٍ بصيغةٍ مختلفةٍ عن الثَّورة المعتادة، هنا نصل إلى مفهوم وجوب الثَّورة الدَّائمة، الثوَّرة الدَّائمة لا تعني بقاء سلطة الثَّورة سيدة على السُّلطة دائماً وأبداً، بل هي الحراك الدَّائم في مختلف المجالات والميادين على نحوٍ مستمرٍّ أو بَيْنَ الحين والحين لكسر الجمود والسُّكون والعقليَّة المستنقعية التي تستحكم بالمجتمع والدَّولة وتحوله إلى مستهلك لذاته وقيمه وقدراته بدل أن يكون فاعلاً منتجاً مُجدِّداً. وبهٰذا المعنى فالثَّورة الدَّائمة أو الثَّورة المستمرَّة مفهومٌ مجازيٌّ لا حقيقيٌّ أو حرفيٌّ لمفهوم الثَّورة.

وهنا نتساءل: هل المجتمع الغربيُّ ليس بحاجةٍ فعلاً إلى الثَّورة؟

ما لا يدركه الغربيُّ أنَّ الغرب في حالة ركودٍ واستقرارٍ وترسُّخ قناعاتٍ وأفكارٍ منذ أكثر من أربعين أو خمسين سنة. هي جيِّدةٌ وكافيةٌ لهم ولهٰذا هم قابلون بما فيها على ما يبدو لنا فيها من أخطاء وجرائم بحقِّ الدِّيمقراطيَّة والحرِّيَّة. ولٰكنَّهُم راضون عنها ومقتنعون بها. وهي على أيِّ حالٍ على درجةٍ من الرُّقيِّ لا تجوز مقارنتها بما في العالم الثالث عامَّةً.

عزت السيد أحمد

شباط ٢٠١٦م.

- أعاجيب السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- أسس التوثيق؛ نحور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- آفاق التمدد الفارسي . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.

- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١م.
- انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.

- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية وأزمة القيادة . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والحلول التهريجية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- حوار في الذاكرة بيني وبنيتي . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين . . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.

- العدوان الأمريكي على سوريا . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العدوان الروسي على سوريا . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العرب أعداء أنفسهم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م.
- العرب جثة تنهشها الكلاب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان/ الأردن . ٢٠١٣م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- الغرب الجاني على نفسه . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م.
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.

- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- الكل يطلق المار النار على السوريين وثورتهم . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.

- ملحمة المجانين (ملحمة شعرية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م. ط٢: دار إنانا ٢٠١٠م.
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م.
- يصغر أمامك الكلم (شعر) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.

* * *

المحتويات

- **الإهداء**..... ٠٠٥
- **مقدمة الكتاب**..... ٠٠٧
- **الفصل الأول**: ثورة في الثورة..... ٠١١
- **الفصل الثاني**: ثورة على أدعياء الفكر..... ٠١٩
- **الفصل الثالث**: ثورة في الفكر..... ٠٢٧
- **الفصل الرابع**: ثورة في الوعي السياسي ٠٣٥
- **الفصل الخامس**: ثورة في الإعلام العربي ٠٤٣
- **الفصل السادس**: ثورة في الوجدان..... ٠٥١
- **الفصل السابع**: ثورة في الفهم ٠٥٧
- **الفصل الثامن**: ثورة في القانون..... ٠٦٣
- **الفصل التاسع**: ثورة في التربية..... ٠٧١
- **الفصل العاشر**: متى يشن القادو الحروب على شعوبهم؟ ٠٧٩

- **الفصل الحادي عشر**: أزمة الثورات..... ٠٨٧
- **الفصل الثاني عشر**: الثوار يحاربون الثورات..... ٠٩٧
- **الفصل الثالث عشر**: الانقلاب على الثورة..... ١٠٣
- **الفصل الرابع عشر**: هل انتصار الثورة حتمي؟..... ١١١
- **الفصل الخامس عشر**: من الذين تجب محاكمتهم بعد الثورة؟..... ١١٧
- **خاتمة**..... ١٢٥
- **صدر للمُؤَلف**..... ١٢٧
- **المحتويات**..... ١٣٣

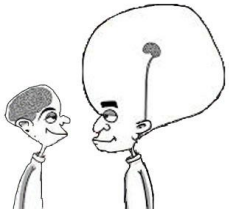

THE REVOLUTION IS REVOLUTION IN EVERY THING

Political and Historical Riading

BY PROF.DR. EZZAT ASSAYED AHMAD

Published By DAR ANHAR
Beirut. 2016
Emil: sameah3@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة
دار أنهار للنشر
ALL RIGHTS RESERVED

THE REVOLUTION IS
REVOLUTION IN EVERY THING

POLITIACL AND HISORICAL RIADKING

BY PROF. DR.
EZZAT ASSAYED AHMAD